



الهيئة  
العامة  
للقصور  
الثقافة

# أخلاق عربية

حلم غير قابل للكسر

( مختارات قصصية )

ليلى العثمان

اختيار وتقديم : حسين عيد





آفاق عربية

الهيئة العامة

للقصور الثقافية

## حلم غير قابل للكسر

مختارات من قصص

ليلي العثمان

اختيار وتقديم : حسين عيد



الهيئة العامة لقصور الثقافة

المان حربية ( 70 )  
(شهرية) - سبتمبر / 2003

حلم غير قابل للكسر  
• ليلى العثمان  
• مختارات قصصية

المراجعة اللغوية : عادل سمح  
تصميم الغلاف : محمد يغلاوى

الطبعة الأولى : ٢٠٠٣  
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٥٦٩٧  
التقديم التولى :

I.S.B.N: 977 - 305 - 575 - 2

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى :  
١٦ (1) ش أمين سامى - قصر العيني  
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الطباعة والتوزيع

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩

شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر  
ت : ٨٣٣٨٢٤٠

رئيس مجلس الإدارة  
أنس الفقى  
أمين عام النشر  
محمد السيد عيد  
الإشراف العام  
فكرى النقاش  
الإشراف الفنى  
غريب ندا

### هيئة التحرير

رئيس التحرير  
د. محمد زكريا عنانى  
مدير التحرير  
حسن الجوخ  
سكرتير التحرير  
لبنى أحمد الطماوى



## عن الكويت القديمة والحب والواقع الجديد !

بقلم : حسين عيد

للكاتبة الكويتية ليلي العثمان تسع مجموعات قصصية ،  
هى : « امرأة فى إناء » ( 1976 ) ، « الرحيل » ( 1979 ) : « فى  
الليل تأتى العيون » ( 1980 ) ، « الحب له صور » ( 1982 ) ،  
« فتحة تختار موتها » ( 1987 ) ، « حالة حب مجنونة » ( 1989 ) ،  
« تى تى حكاية قصيرة » ( 1992 ) ، « الحواجز السوداء » ( 1994 ) ،  
« يحدث كل ليلة » ( 1997 ) . كما أن لها أربع روايات هى :  
« المرأة والقطعة » ( 1985 ) ، « وسمية تخرج من البحر » ( 1986 ) ،  
« المحاكمة » ( 2000 ) ، و « العصعص » ( 2002 ) . وذلك  
بالإضافة إلى كتابى يوميات .

هذه القصص « مختارات » من مجموعاتها القصصية  
« التسع » ، توزعت بين « بعض » من أهم « محاور » عالمها ،  
وهى : الحنين إلى عالم قديم ، وعالم المرأة ، وقضايا الواقع !

## الحنين إلى عالم قديم

رافد أساسى تخلل معظم إنتاج لىلى العثمان ، هو هذا الحب العميق والجارف لعالم الكويت القديمة . الذى يتبدى ، حين تستعيده فى قصصها ، حيا نابضا متألقا شديد العذوبة ؛ لذا نجد فيه بعضا من أجمل قصص الكاتبة ، بل من أبدع القصص القصيرة بوجه عام ، وأذكر للمثال قصتين : الأولى قصة « الطاسة » ، من مجموعة « الحب له صور » ( 1982 ) ، وهى تحكى عن رحلة أم وبناتها تصاحبهن الجدة ، إلى البحر خلال غياب الأب ، لتحنية شعر البنات وغسله بمياه البحر ، والأم لحرصها الشديد على طاسة الحناء الذهبية ، ( التى تمثل مهدها ورأسمالها إذا ما فقدت الزوج ) ، تأخذها معها فى رحلتها ، فإذا هى تتحرك من تحتها ، أثناء غسيل شعر البنات ، مع الموج لتغنيها مياه البحر ، والأم تصرخ وتضرب صدرها حزنا لفقد الطاسة !

لغة هذه القصة بسيطة ، سلسلة ، ينساب تيارها برقة موج البحر واندفاعاته المتتالية . وفيها ذلك الألق الأسرى والجو الشعبى مصورا بصدق . وفيها أيضا ، رسم للشخصيات : الجدة بحنانها وحدها على البنات وذكرياتهن وحكاياتهن للبنات ،



وهناك الأم بقلقها وحرصها على الطاسة وكأنها مصباح علاء الدين السحري ، وفيها مرح البنات وانطلاقهن . وفيها زخم المكان القديم وعاداته وتقاليده . كما يتجلى فيها جو الرحلة الإنسانية الأليفة إلى البحر ، كما الحياة ، حيث تنتزع أمواجه الطاسة ( الحلم ) ، وتغيّبها بين مياهه ، كأنها يد لقدر ، وهى تحاول أن تنبّه الإنسان من حلمه الأزلّى ، بأن السعادة ليست فى الذهب ، وإنما هى موجودة بيننا دون أن نحسّ بها ، فى البنات وحيويتهن ومرحهن ، وفى ألفة التجمع الأسرى . وهى الحقيقة التى تعرفها الجدّة بحكم عمرها ، وغابت عن الأم لنقص تجربتها وجسامة مسئولياتها !

أما القصة الثانية ، فهى قصة « ويبقى الصوت حيّاً » ، من مجموعة « فتحية تختار موتها » ( 1987 ) ، فهى قصة مأساوية ، تمتاز فيها الحكاية بالموال الشعبى . وفيها توازن رائع بين رحلتين : رحلة الأم الشكلى بصوتها الذى تندفق فيه الكلمات شجية ، أسيانة ، تنفجر حزنا ، ورحلة البشر المواكبة خلال ثلاثة أيام بصوتها الخاص ، حين ترصد فى اليوم الأول حركة البشر فى الحى القديم بكلمات بسيطة عفوية ، ترسم أدق التفاصيل ، بينما سيدات الحى كدأبن ، يحاولن استكناه حقيقة

الصوت ، الذى ينوح ، حتى تنكشف الحقيقة ، فى اليوم  
الثانى ، بالصدفة بواسطة طفل وأخته خلال رحلة ذهابهما إلى  
مدرستهما ، ( وكأنها رحلة الإنسان فى الحياة ) ، وحتى  
يعوّضان تأخيرهما يسلكان طريقا مختصرا يمرّ بالحوطة ، ويظن  
الطفل أنه عثر على كنز ( أوليس هذا هو حلم البشر منذ الأزل  
بالكنز الموهوم !؟ ) ، فيفاجأ بجثة طفل ميت ( أوليست هكذا  
هى الدنيا تفاجئنا بما لا نشتهي !؟ ) ، فينتشر الخبر فى الحى  
بأكمله ( ولم يكن مقدرا أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها  
حكايات ) فمع فجر اليوم الثالث أعلنت الأم عن نفسها ،  
( وصوتها يعلو وينخفض مبللا بالأسى . ممزوجا بنغمات كأنها  
حدّ السيف يذبح سامعيه :

أصرخ وجمر فى الحشا ..

هذا ثرى وليدى

هذا .. ثرى وليدى (

هكذا انتحرت المرأة على قبر وليدها ، الذى « قتلوه » .

وإذا البشر يتحوّلون ، بعد أن أكسبتهم تجربة الموت وعيا  
جديدا ، فيتعاطفون مع مصاب المرأة الفادح !

\*\*\*

وتعلل ليلي العثمان جنوحها إلى الكويت القديمة بقولها :  
( البيئة القديمة تعيش في وجداني وملتصقة به ، وأحب كل  
ما هناك ، خاصة ارتباط الإنسان بالبحر قديما وعلاقته به . فأى نسمة  
من نسمات الماضي أسجلها بصدق وإحساس ) . ثم تستطرد :  
( وهذا طبيعي ، فأنا عندما أكتب عن بيتي القديمة ، عن تجربتي  
الخاصة ، يكون الأمر مختلفا عندما ( أنقص ) شخصية امرأة تكتب  
عن المرأة ، فأنا أخرج عن الذات بشكل كبير ) . ( من حوار مع  
الكاتبة ، نُشر بجريدة الشرق الأوسط في ١٩٨٨ / ١ / ٥ ) .

لقد عاشت ليلي العثمان ( طفولتها ) في واقع « الكويت  
القديمة » ببحره الواسع ، وبيوت أغنيائه الفسيحة وأحيائه  
الفقيرة ، بتقاليده وطقوسه ، بأفراحه وأتراحه ، بحكاياته  
وأحداث ومصائر بشره . فانفعلت به وتأثرت ، وعانت فيه كثيرا  
وتحملت آلاما كبيرة ، كل ذلك ساهم في تشكيل وجدانها  
وتحديد معالم شخصيتها .

إنه عالمها الخاص ، معينها الذي لا ينضب ، حينها الذي  
لا ينقضي . إنه بمعنى آخر « تجربتها الخاصة » مختزلة ،  
مختصرة ، حية داخلها ، ترد إلى مخزونها كل فترة ؛ لتستعيد  
بعضًا من ألق ذلك الواقع المندثر ، وتستمد منه تفهما لما

استعصى عليها من معانى الحياة ، وتستبصر من خلاله حركة الدنيا ، ليتدفق - ثانية - حيا من خلال الكلمات ، متجسدا فى قصص جميلة ، بل ربّما من أجمل القصص بشكل عام !

هنا ، يتبدى أحد قوانين « الإبداع » ، فكلما اقترب الكاتب « المبدع » من « تجربته الخاصة » ، من عالمه المتميز ، ونهل من نبعه الخصب ، فهو - هنا - ينهل من مخزون مكتمل ، ناضج ، ذاتى التكوين ، لذلك تأتى الثمار ، بشكل طبيعى ، ناضجة ، يانعة ، أصيلة !

### عالم المرأة

شغل عالم المرأة محورا مهما من قصص ليلي العثمان ، الذى نسجت فيه برهافة حسن متناهية ، بعضا من أجمل القصص . وأذكر للمثال قصتين : الأولى قصة «موت اللبابة» ، من مجموعة « يحدث كل ليلة » ( 1997 ) ، وهى ذات بناء « دائرى » بديع ، يضفر علاقة بين امرأة وحيدة ولبابة متسلقة . تبدأ القصة من نقطة تعصف فيها الريح ويشد المطر ، وإذا المرأة من « داخل » حجرتها ترقب من وراء زجاج نافذة غرفتها للبابة نائمة (من قلب الأرض متسلقة خيطها إلى حافة السطح ، تأملتها ، تفرست بأوراقها الخضراء النامية ) ، وكانت ( الريح

تحاصرها ، تنتفض كأنثى يطاردها مزاج رجل مجنون ، تحاذى الزجاج تصفقه ، كمن توذ اقتحام الغرفة بحثًا عن الدفء والأمان . وإذا المرأة تتذكر حبيبها ، وتحنّ إلى وجوده . لكنها كانت تعى صعوبة تحقق حلم حضوره ، كما أن وراءها التزامات لابد أن تقضيها من « الخارج » رغم المطر العاصف ، فأسدلت الستارة بوجه اللبلاية ، وتأهبت للخروج !

هنا ، علاقة بين طرفين متوازيين ، هما : امرأة ولبلاية ، تبدأ وسط جو عاصف ، كلتاهما تحنان إلى الدفء ، لكن الظروف تفرض أن تستمر معاناتهما . تنوء المرأة فى الخارج فى خضم انشغالها تلبية احتياجات حياتها اليومية .

ثم تعود إلى المنزل ، لتركض إلى غرفتها ، بحثًا عن رسالة محبوبها الأخيرة ، وتعانقها ، لتصل إلى نقطة البدء فى القصة حين تفض قماش الستارة ، وتفتح النافذة ، فيكتمل البناء الدائرى . ولكن ما أبعد الفارق بين لحظة البدء والمنتهى ؛ لأنها حين بحثت عن اللبلاية ، لم تجدها فى مكانها ، بل رأتها بأسفل متكوّمة كجثة . و ( أحسّت الريح تفتح ثقبًا بكل عظامها فتتكسر بداخلها الأغصان . انتفضت . تهاوت إلى الأرض ، وأجهشت ) هل بلغ تعاطفها معها « كمواز لها » ذلك المدى

البعيد ؟ أم أست لهزيمتها أمام العاصفة ؟ أم اعتبرت ما حدث لها  
نذير شؤم مما قد تؤول إليه علاقتها ؟ !

القصة الثانية ، هي قصت « حلم غير قابل للكسر » ، ذات  
زمن محدود بفترة قصيرة يقوم فيها قائد سيارة بتوصيل زميلة إلى  
منزلها ، ثم يصعد بناءً على دعوتها إلى شقتها . كانت الفتاة  
تعشقه ، وكم تمنى أن يتحقق حلم توصيلها . وحين حدث ،  
كانت تعتقد أن الفرصة قد حانت له ؛ كى يعبر عن مشاعره لها ،  
لكنه ظل صامتا . فإذا ما بدأت حوارا سرعان ما كان ينقطع .  
وحتى بعد أن دعتة إلى فنجان من القهوة ، بدا خلال الجلسة كأنه  
فى وادٍ آخر . لم يكن يشعر بها ، وحين سألها إن كانت تقرأ  
الفنجان ، رحبت بالفرصة ، لكنها سرعان ما وأدتها ، وبقي أمر  
عشيقها حلما بعيد المنال !

هذه معالجة فنية ناعمة ، رقيقة ، طبيعية . يعبر الموقف فيها  
ويوحى ، دون أن تتدخل الكاتبة . هنا طرفان ، أحدهما محب  
ولهان . لكن للحب قانونه المتوازن ، فإذا أقدمت الفتاة على  
خطوة تحت ضغط مشاعرها ، ولم يحدث من الطرف الآخر  
ما يواكبها ، توقفت وتراجعت ، وإن حافظت على حبها ،  
فللقلب كلمته أيضا !

وانظر ، عندما يتداخل محورا « العالم القديم وعالم المرأة » ويتفاعلان ، فإذا التاج جميل باهر ، وهى ما تجلّى فى قصة « الليلة ترقص شهرزاد » من مجموعة « يحدث كل ليلة » ( 1997 ) ، المستوحاة من عالم الكويت القديمة ، والتي تتابع فيها شابة « وحيدة » على أريكة بيتها ، بعد أن تركها الحبيب ، دون أن يلبي رغبتها فى الرقص ، وإن دثر عنقها « بالشماع » الخاص به . وكان قد أتاح لها قبل ذلك زيارة مكان يعبق « بالأجواء القديمة » ؛ لسابق معرفته بأنها تعشق تلك الأجواء .

هنا شابة « وحيدة » ، بعيدة عن الحبيب ، لم تشبع رغبتها إلى الرقص ، وإن أشبعت - مؤقتا - ظمأ لا يرتوى إلى عالمها القديم ، الذى يتبدى لها كفردوس مفقود ، فكان حتما أن تنفلت من قيود الواقع ، وتنطلق فى « رحلة أسطورية » ؛ لتدخل « عالما مؤنسا زاخرا بالبدائع والجمال والدهشة » ، وبعد أن تتجول بين أجوائه القديمة ، تستعيد فى مقطع قصير بعضا من ألق ماضيها الخاص ، فترة عبث صبيانى مع طفل من عمرها . وانظر إلى هذا المشهد الجميل ، المستعاد :

( ألوان الفجر . الغابات المطرزة بألوان الجنة . البحر الرصاصى . الرمل الذهبى . ألوان العلب المتناثرة بأنواعها :

مائية ، زيتية ، جواش . بعضها شرب دموع الماء وجف أخيرا ، صار يملك ألوانا حقيقية . بالأمس البعيد كان طفلا يشد على فحمته السوداء ، يرسم على جدار بيتهم القديم شجرة . فأكتب بفحمتي عليها : « الشجرة بيتي » .

يرسم وردة . فأكتب على رأسها : « الوردة عطري » .  
يرسم دلة وفناجين . فأكتب فى حلق الفنجان : « هذه قهوتى » .

هذه قصة ناعمة ، جاء « الخيال » فيها معبرا - بعد زيارة واقعية للأجواء القديمة - للقيام برحلة « أسطورية » إلى الماضى العتيق ، كانت السبيل إلى أن تتحرر من أعباء « وحدة » الحاضر ، ومن ثم الانتقال من العام إلى الخاص ، إلى دفعه وأمان الكويت القديمة ، فكان ذلك جواز مرور لذاتها ، كى يفتح الطريق أمامها ؛ لتتحرر من إसार رغباتها الحبيسة ، وأن تنطلق ، فإذا « الشماع » الخاص بالحبيب يتحول إلى شهریار ، فدعته إلى الرقص ، لتموت كل الحكايات ، ولا يبقى إلا الرقص !

### قضايا المجتمع

رافد آخر من قصص لیلی العثمان : تناول المجتمع الحديث



وقضاياه ، سأضرب مثالا له بقصتين : الأولى قصة « يحدث كل ليلة » . . من مجموعة بالعنوان ذاته صدرت عام 1997 ، وهى من القصص القليلة التى يرويها « رجل » بضمير المتكلم ، وهو يعبر عن مشكلة يعانى منها باستمرار ، والتى بلورها قرب نهاية القصة ، قائلا إنه فى ( النهار مضايقات ومحاولات لخنقى فى ذات الزجاجة التى اختنقت بها أعناق غيرى من الضعفاء ، وفى الليل يحدث لى ما يحدث ، وإن كانت وسائل فى مقاومة أعداء النهار تنجح إلى حد ما ، فإن كل وسائل التى تجربتها لمحاربة كائنات الليل باءت بالفشل ) .

هنا ، شخص قوى فى الحق ، شجاع فى المواجهة ، صامد لا يتراجع . هذا فى النهار ، أما فى الليل ، فتركبه الكوابيس ، وتطارده الأشباح ، فلا يستطيع النوم . الخطير فى الموضوع ، أنه أمر يتكرر كل ليلة !

وحين حكى ما يحدث له ، بادر الأصدقاء إلى تقديم اقتراحات وحلول ؛ لمساعدته فى التغلب على كائنات الليل التى تهاجمه كل ليلة ، وجرب فعلا كل ما أشاروا به ، لكن كل محاولاته باءت بالفشل . عندئذ تنبه من حوله إلى أن ما يفعله نهارا ربما كان هو السبب ، فبادروا إلى نصحه ( يا رجل هكذا

تسير الأمور فى كل مؤسسات الدولة . هل تريد أن تصلح الكون) ، وقالوا له أيضا « ساير الأوضاع ترتاح ! » .

ولم يقبل نصيحهم ؛ لأن ذلك كان طبعه ، ولن يستطيع أن يغير نفسه . وعندما استمر الوضع كما هو اضطر أن يأخذ أسبوعا إجازة ، تفرغ فيه للتفكير وتمحيص مشكلته ، حتى انتهى إلى قناعة بأنه ( رجل غير عادى . رجل مشبوه « بنظرهم ، وما هذه الكائنات سوى أشباحهم النهارية تتسلط على حتى تولعت بى حقيقة ، وعلى أن أبادلها الولع ) !

ومنذ أن سلم بهذا الظن ، توقف الذى « يحدث كل ليلة » . وهذا أحد مستويات تفسير هذه القصة ، أو الوجه الأول لها ؛ لأن هناك مستوى آخر للتفسير كان فيه بطل هذه القصة رجل مدافع عن « القيم » ، يعيش فى « واقع » معين ، « يرفض » ما يتفشى فيه من خلل ، ويبادر الى التفضال و « المواجهة » بشكل « مباشر » . إنه نموذج « لم يكتمل » لكاتب أو هو الوجه « العملى » له . يتشابهان فى أن كليهما حامل للقيم النبيلة ، رافض لما يستشرى فى الواقع من فساد ، مبادر إلى التصدى ، تلعب « القراءة » دورا أساسيا فى تكوين كل منهما ، وإن اختلفا فى أن ذلك الشخص يتصدى بشكل « مباشر » لأوجه الخلل

نهارا ، بينما يواجه الكاتب صاحب التكوين « النظرى » بشكل « غير مباشر » نفس أوجه الفساد بالكتابة . وفى الوقت الذى ظلت فيه أصداء ما يحدث نهارا تطارد ذلك الرجل ليلا ، تبقى تلك الكوايس إرهابات حمل ، تمنع فى الدمدمة داخل الكاتب فى « الخفاء » ، حتى تمتزج مع رؤاه الداخلية وتتحول إلى جنين كامل ، يطالب بحقه فى الوجود ، فيكون مخاض العمل الأدبى ، بعد طول معاناة وعذاب !

أما القصة الثانية ؛ فهي قصة « زهرة تدخل الحى » من مجموعة « فتحة تختار موتها » ( 1987 ) ، فهي نتاج خصب أيضا للتفاعل بين محورين أو تيارين ، هما : الكويت القديمة وقضية من أخطر قضايا واقعنا العربى الحديث ، وانظر إلى « مخيلة » الكاتبة وهى تتوهج وتبدع ، فإذا القضية حاضرة ترتدى ثوبا شفيفا من الكويت القديمة !



## الطاسة

سلمت أمى لجدتى الطاسة المعدنية :

- تفضلى هذه طاسة الحناء ... عجته البارحة .

وسألت جدتى :

- والسدر <sup>(١)</sup>؟؟

وردت أمى باقتضاب وهى تتوجه إلى زاوية الغرفة :

- سأحنى البنات اليوم .

انحنى على صندوقها « المبيت » <sup>(٢)</sup> وفتحته .. ففاحت منه

رائحه بخور مكتوم ، وروائح « دهن العود والورد » التى

تستعملها أيام الأعياد ... وتذكر بليالى الأعراس .

بيد حانية رفعت بعض الأشياء الراقدة فى الصندوق ..

وسحبت الطاسة الصغيرة .. ثم عادت وسوّت وجه المحتويات

بحنان زائد ... بينما تنهيدة عميقة مليئة بالشوق تصدر عنها

وتعلن عن شيء مخنوق فى داخلها .

---

(١) السدر : نبات مثل الحناء ويستخدم بدل الصابون .

(٢) صندوق مبيت : نوع من الصناديق الخشبية الضخمة يستخدم  
لملابس المرأة .

وحين لمحت جدتى الطاسة الصغيرة زفرت :  
- أف لهذا الوسواس الخئاس .. أنا لا أدرى لماذا تحمليين  
« طاسة الذهب » معك كلما خرجت !  
وترد أُمى :

- هى كل ما نملك فى هذا العمر ... إنها مهرى ...  
وتلين لهجة جدتى :  
- يا ابنتى .. كلنا نملك مثل مهرك .. فلماذا لا نحمله  
أيما ذهبنا ؟؟

وتقذف أُمى جوابها المختصر :  
- الحرص واجب يا أُمى ..  
فتؤكد لها جدتى :  
- لو تركت باب بيتك مفتوحًا ... لما امتدت يد لشيء  
فيه .

وتصمت برهة بانتظار كلمة من أُمى .. وحين لم تسمعها  
تلك أكلمت :

- الدنيا أمان ... فى السوق يتركون مالهم ...  
وحليتهم .. ويذهبون للصلاة ....  
وأنت ! خائفة على طاستك !

عدلت أمى من وضع عباؤها الخفيفة فوق رأسها وهى تقول  
- لو ضاعت فسيلومنى أبو البنات حين يعود .

لم يعجب جدتى الرد .. قلبت سحتها وسخرت من أمى :  
- الجنون ... فنون ...

دست أمى الطاسة الصغيرة تحت ذراعها اليسرى ..  
وفتحت الباب .



لاح وجه البحر الأزرق لامعًا ... ضاحكًا .. تدفع  
أمواجه زبدًا أبيض تلتمع عليه أشعة الشمس فيبدو كخطوط  
من الفضة المصقولة ... وهب نسيمه الرطب ذو الرائحة  
التي لا تخطئ أصلها ... يدخل إلى الرتتين لطيفًا فيبعث فى  
الأوصال برودة تلطف الجسد وتخفف من حرارته . وانحدرنا  
عبر الشارع الضيق نحو « اليال »<sup>(١)</sup> الذى بدا صافيًا ...  
لامعة رماله ... مرتاحة حجارته و « زبايطه » التى تستحم  
بالماء ثم تجف .

كان مرورنا فى الشارع الضيق ... عبر البيوت الطينية ذات

---

(١) اليال : ساحل البحر .

الأبواب الخشبية المواربة فى الغالب ... ومن أحد البيوت  
يتسرب حوار رجل وامرأة ! وفى آخر يعلو خوار بقرة .. وبعض  
أصوات الديوك ... وتفوح من كل البيوت روائح طهو  
اللحم ... أو السمك ممزجة برائحة الجو الرطب والتراب  
المبلل بنداوة تنبت أيام الصيف .

مررنا بيت « أبو صالح » مدت أمى ذراعها .. وطرقت  
بابه .. فالتفت إليها جدتى :

- لماذا تطرقين أبواب الناس ؟؟

بلا اهتمام بغضب جدتى ... قالت أمى :

- اتفقت مع أم صالح أن أطرق بابها لتلحق بنا . لديها بعض

الثياب للغسل .

اقتنعت جدتى ... وواصلنا .

استمر انحدارنا ... البحر حلم أزرق يمتد .. أمى ونحن

خلفها كالبطات البيض ... تتقدمنا جدتى حاملة فوق رأسها

« بقشة » الثياب ، وبعض الحاجيات اللازمة لحمام البحر ،

وتحت ذراعها اليسرى تدفن طاسة الحناء .

كانت جدتى قصيرة القامة ... ممتلئة .. لها وجه مربع

عريض ينتهى من الجانبين بزاويتين ... قائمتين ... يلتقى



ضلعاهما فى استدارة الذقن المائل دائما للاحمرار .. يزداد احتقاناً حين تثور ! أو تضحك ! أو تعطس .

كانت جدة طيبة ... حنونا ... تفرحنا زياراتها القليلة التى تحمل هداياها من الرمان ... والكنار<sup>(١)</sup> وحلاوة الديك . كما كانت تحمل الأمان معها ؛ فأمى التى تتورم رءوسنا الصغيرة من ضرباتها تمتنع عن فعل ذلك فى وجود جدتى ؛ فقد لقتها ذات يوم درساً حين دخلت وزاتها ترضّ رأس أختى بالحائط فتدميه . سحبت جدتى عصا أبى الغليظة المعلقة على الحائط نفسه وانهاالت بها على أمى ... وهى ترغى ... وتزبد :

- غياب زوجك يجعلك تقسين على الصغيرات ... فذوقى ما يذقن .

يومها أعلنت أمى التوبة ... لكنها توبة مؤقتة ... ثم أصبحت جزئية .. بحضور جدتى فقط ... وكانت تتوعدنا قبل زيارتها لنا :

- إياكن أن تقلن لجدتكى إننى ضربتكى .. وإلا فسوف أذبحكن حين تخرج .

وكنا لا نفعل ... فجدتى تحميننا مرة ، ولا تفعل فى

(١) الكنار : نوع من النبات الصغير .

عشرات المرات التى لا تزورنا فيها ... لكن عتابها لأمى  
لا ينقطع فى كل زيارة :

- ما بالك هكذا .. عصبية على الصغيرات ؟؟  
وتبكى أمى :

- شقاء فى الليل ، وفى النهار .  
- أنا أكره بيتك من هذه الشكوى المتواصلة ، كأن أحداً  
غيرك لا يفارقه صاحب بيته .  
ومسحت أمى دمعها :  
- تمر الأيام على طويلة يا أمى .  
- وعليهن ؟؟

لم ترد أمى على السؤال ، فاعتدلت جدتى فى جلستها ،  
تربعت ... فبدت كمربع نبت له دائرة فى ضلعه الأعلى :  
- أنت هنا .. فى بيتك ... ومع بناتك ... ورغم كل  
المصاعب أنت فى أمان .. أنا هن ! ...  
وتنهدت ...  
- فهن بين السماء والبحر .. فضاء كبير قد يتلعهن فى أية  
لحظة .

ماج اضطراب فى وجه أمى وهمست :

- لو حصل له مكروه ...  
 وقاطعتها جدتى وهى « تنفل » كمن تطرد شرًا :  
 - تعوذى من الشيطان ...  
 وتعوذت أمى بصوت يتر حزنا ... ويحمل مخاوف :  
 - الحياة صعبة ... تريننى أخاف على طاسة الذهب ...  
 لا قدر الله ... لو فقدناها ... لم نجد ما نعيش منه ...  
 وعلا نشجيتها ... اقتربت منها جدتى وهى تقول :  
 - حياة بحر ... غوص ... وتعب .  
 قالتها .. وسحبت تنهيدة عميقة من صدرها الذى يتر دائما  
 بالربو ... ثم ربت على ظهر أمى بحنان وهمست :  
 - ادعى الله أن يعودوا سالمين .



وأحبينا حنان جدتى . فهو حنان ينبع من كفها التى تحمل  
 الحلوى ، وحنان من صوتها حين تحكى « حزاويها » الطويلة  
 التى تنعش خيالنا .. وتبهج قلوبنا .. وتقصر على أمى ليالى  
 الفراق الصعبة .

وأحبينا كذلك حمام البحر أيام الجمع .. حيث ترافقنا فى  
 رحلة الطريق الناعمة .. وفى البحر ... تداعبنا .. تغطسنا فى

الماء ... ثم تلتطخ رءوسنا بالسدر الأخضر ، تفرك به شعورنا  
... فترغى رغبة يتطاير زبدها فى الهواء راقصا على نغمات  
صوتها وهى تغنى أغنيات البحر وتحكى عن جدى الذى كان  
يغيب عنها شهوًّا طويلة .. لا تسمع عنه خبرًا ... وتظل  
بانتظار موكب البحارة بعد سفر عسير .. غانمًا .. أو فاقداً  
لأحد غاصته ... أو رجالاته .

كانت الذكريات تلون وجهها العريض بالفرح ، والتذكارات  
غالية ... والجذّ نامت عيناه منذ سنوات طويلة ... وأبى اليوم  
يرحل ، وأمى تبكى وتضيق ذرعا بحياتها ، وتخاف على طاسة  
الذهب التى هى رأس مالها لو تعكر صفو حياتها ... ولهذا  
تقسو علينا كلما عصف الخوف بقلبها ... أو وسوس شيطان  
بصدرها فتتظر زيارات الجدة ، وأيام الجمع .. بالشوق ...  
وبالهمة ... ويفرح الصائم بانتظار لحظة الإفطار .. حيث  
الحلم .. البحر الأزرق .



هو ذا البحر يعانق العين .. هو ذا الأزرق الذى نستفيق على  
موسيقاه الوالهة ... ونراقب من الأسطح سفنه ... وأشرعتها  
المبحرة مع الرياح ... ونشم عبر هوائه زفر الهامور والزبيدى ،

ورائحة جدى الذى رحل ... وأبى الذى حمل الزوادة ...  
وودعنا ... ليعود .



ويرتاح الجسد على الشاطئ ... ترتاح طاسة الحناء التى  
تلطخ أُمى بها رءوسنا ... فنبدو كالعجول الصغيرة الخارجة  
للتو من بطون أمهاتها ملوثة بالدماء ... وننتظر على الرمل  
الدافئ .. حتى تشرب شعورنا اللون الأرجوانى ... نجمع  
الأصداف .. والأعشاب المتفخة ، نقفعا بأسناننا ونبصقها  
لترتد إلى أمها البحر خائبة خاوية .. بينما أُمى وبعض النسوة  
يغسلن الملابس والكنابل الصوفية والحصر ... وزبد البحر  
الأيض يتجمع فقاعات تصطدم بأيدي النسوة التى تحرك الماء  
فترتد كارتداد الشفق إلى كبد السماء .



بدأت أُمى بأختى الكبرى ... وحملت أختى الثانية طاسة  
الذهب .. وحين رصفت أُمى شعرها بالحناء نحتها جانبا ...  
محرضة إياها ألا تغطس فى الماء حتى يجف الحناء تمامًا ..  
ثم سلمت الطاسة الغالية لتحنى أُمى شعر أختى الوسطى ..  
وبين لحظة وأخرى ... كانت تلتفت إلى منبهه :

- انتبهى ... شدى على الطاسة .. إياك أن تفلت منك ...  
وبانتظار أن ينتهى دورى ... عصرت الطاسة إلى صدرى  
حتى أحسست بها تلتحم به .. وخشيت إن سحبتها يد أمى أن  
تسحب عظامى معها ... وتنهدت بفرح حين انتهت مهمتى  
وسحبت أمى الطاسة منى .

رقدت عليها كما ترقد دجاجتنا على بيضها ، وأخذت تحنى  
شعرى ... مطمئنة .. تغنى بصوت يبتلع البحر صداه .. وكان  
يصلنى متقطعاً .. يشد موج البحر نغمة .. وتشد أذنى نغمة .  
ونغمات تنطلق نحو السماء ، ترتفع مع الهواء ... ولعل أمى يحملها  
الشوق إلى أبى الذى يستمع لأغنيات البحر ... وصت النهام .  
وانتهى دورى ...

وفكت أمى جدائلها السوداء .. شعرها الليلى ينهال على  
كتفها وصدرها وكأنه مل أسره . والتفتت إلى جدتى :  
- هل تمسكين بطاسة الذهب حتى أحنى شعرى ؟  
لكن جدتى هزت ذراعاً دسماً فى وجه أمى :  
- لا .. لا تحملينى مهمة شاقة كهذه ... ظللى راقدة  
عليها ... فقد تبيض لك ذهباً أكثر .



موجة ... موجة ... والبحر يرقص ... ونحن نتداعب  
ونتراشق بالماء ... وشعر أمى الطويل يتحنى بكفها خصلة ...  
خصلة ... والبحر غدار .. مخادع ... وأمى سعيدة بشعرها ..  
والبيض من تحتها دافئ والموج يصفع الرمل ... والرمل  
يصرخ ... وتنطلق صرخته .. لتحرك الطاسة المعدنية ..  
فتخرج من بين فخذيهما كخروج الطفل من مخبئه .. وتصرخ أمى :  
- الطاسة الطاسة ...

وتنتبه العجول الصغيرة .. وتتفرض جدتى ... وأمى  
واقفة ينسدل نصف شعرها المحنى على كتفيها .. بينما  
يتطاير القسم الآخر فى الهواء ... وتصرخ بصوت تتحدى  
فيه موج البحر :

- الطاسة ! أمسكوا الطاسة !

هرعنا مذعورات من عالم الحلم ... والفرح .. صيادين  
بلا عدة ... نحاول أن نصطاد السمكة الهاربة ... التى تحمل  
فى بطنها مهر أمى .. ورأس مالها ... الماء يرتفع ! يرتفع  
وجدتى تسحبنا وتصرخ :

- ارجعن ياملعنات : ستغرقن !

وحلم أمى !!

تصرخ أختى الكبيرة :

- الطاسة يا جدتى ....

فتشد جدتى شعرها المحنى .

- الطاسة بالشيطان ... هل تغرقين !!

هو ذا حنان الجدة وخوفها على البطات ... بينما أُمى

مفجوعة تصرخ :

- الطاسة .... الطاسة !

والطاسة تبتعد فوق الموج .. خيال يهتز فوق صهوة حصان ...

وأُمى .. تصفق وجه الماء ... وتندفع لتمسك بها ، جدتى تتبعها

متثاقلة ، تسحب شحما تشق به الموج الثائر ... ولكن الطاسة أبحرت

... وأبحرت ... مودعة صراخ أُمى الذى صار نواحا ...

عادت ... تضرب صدرها ... تولول ... بينما جدتى

حزينة الوجه .. تعصر « ملفعها <sup>(١)</sup> » الشاش الذى تبلل بالماء

وتردد :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ...

---

(١) الملفع : غطاء رأس المرأة .



## ويبقى الصوت حيًا

تقول الحكاية : إن ذلك الصوت الحزين الباكي كان ينساب عبر نسيم الليل فى مكان ما . ليطرق الأذان .. ينسكب فيها انسكاب الماء الحارق على الجسد .. يأتى موجعًا .. مترعًا بالألم .. فيه مزيج من الشكوى .. والابتهاال . وَيُنْذِرُ بحدّة تتفجّر يومًا فتصبح جنونًا يشق بكارة الحى الغافى دائمًا على حكايات صغيرة .

هذا الصوت مَوَال بدأ يُسْمَع فى الليل ، يفوح صدهاء بروائح الألم . وفى النهار رغم الضوضاء والصخب ، يُحسُّه كل من يتحرك وكأنه داخل أذنه .. يشقها . ينتزعه من أشغاله اليومية ، ما بين اللحظة والأخرى ، كأنه يذكره بأن الصوت ما يزال . أصبح هذا المَوَال يقلق الصمت .. ويفجّر التساؤلات وهو حزين شاك لا يفتأ يردّد :

” قلبى على طَوِيرٍ خَصَرَ  
شـالـوه من إيدى  
ما شافته العين لا

وما رضعه دويدى <sup>(١)</sup>  
عينى عماها ملحها  
والنار على خديدى  
أصرخ وجمر فى الحشا  
وينه ثرى وليدى .



يوم الجمعة ينفض شمل المصلين . يخرجون من المسجد  
كل يحمل مسبحته ، تسبقهم آيات الحمد والشكر ، يتوزعون  
بين الدكاكين القريبة ثم يتفرقون متوجهين كل إلى بيته . يمرون  
عبر الأزقة الطينية حيث تبدو النساء الكادحات عائدات من  
«ساحة الصفاة» <sup>(٢)</sup> بعد نهار شاق ، واحدة تحمل قفص  
الدجاج على رأسها . وتدب فى سيرها ، وشجار الدجاجات  
متواصل فى القفص ، وبعض الريش يتطاير حتى يلتصق  
«ببوشيتها» <sup>(٣)</sup> الكالحة . وأخرى تحمل سلة مهترئة فارغة إلا

---

(١) دويدى : تصغير لكلمة «ديد» وتعنى ثدى .

(٢) ساحة الصفاة : ساحة رئيسية فى مدينة الكويت .

(٣) بوشية : غطاء الوجه للنساء ولونه أسود خفيف .

من بعض قشور بيض تكسر وتلَوْن بلون الصفار الذى تجمّد عليه . وأم خضر - يعرفها أهل الحى - تدسّ بقشّتها المليئة بحاجيات النسوة ، وغالبًا ما يكون حجم البقشة فى طريق العودة أصغر مما كان عليه حين خرجت فى الصباح . وبائعة الباجلاء تهف على وجهها وقد اختارت ظلا تحت الجدار . ولم تكن الطريق تخلو من همهمات ... وسلامات ... وأحاديث عابرة بين النسوة . وقد توقف إحداهن أم خضر لتفك بقشّتها وسط الشارع لتفترج على ما لديها من حاجات .

ويتراكم الأطفال بين النسوة والرجال . يتطاير غبار الطريق تحت أقدامهم . ويشوطون الحجارة التى قد تنفلت وتسقط فى قدر الباجلاء ، فتثور بائعته وتسب ولا من يسمع .

والبنّيات الصغيرات على رءوسهن تتربع « مطابق <sup>(١)</sup> » اللبن وهُنّ قادمات من بيت أم على . أو صُرّر الملابس الملونة لقادمات من بيت أم عُبيدى الخياطة ، وقد يتلاسنّ أحيانًا مع بعض الصبية المهرجين .



---

(١) مطابق : جمع « مُطَبَّق » وهو وعاء خاص لوضع اللبن .

تصب هذه الأفواج في الشارع الطويل ، ومنه تتوزع عبر  
الطرق الدافئة الضيقة العابقة بروائح الطعام .. والكاز ..  
وبخار التراب .

وكل من يمر عبر تلك الطرق كان الصوت يتهدى إليه ..  
وكثيرا ما شوهد الناس وهم يرفعون رؤوسهم باحثين عن المصدر  
الذى يصل منه إلى آذانهم ونوافذ بيوتهم ، فتعلو وجوههم دهشة  
وحيرة ! بينما السؤال يتوالى مع توالى الليالى والأيام : مَنْ  
صاحبة ذلك الصوت المتفجر ألما بكلمات تؤكد نواح أم فقدت  
طفلها ؟؟



لم يكن أحد ليعترف من الرجال حين يتحلقون فى المسجد  
بعد صلاة العشاء بأن لهذا الصوت وجودا . كأن كل واحد منهم  
يخشى أن تُلصَقَ به تهمة إيواء هذا النواح ، لكن الفضول السَّوى  
كان يوقف سير الأقدام التى كثيرا ما تَحَارُ أين تستقر ! فمن كل  
فراغ يأتى الصوت ، ومن كل نافذة يخرج .. ومن كل حجر  
ينطبق ، حتى أن بعضهن أخذ يُشيع أن « شيطانًا ما » يفعل  
هذا .. وبعضهن يؤكد وجود امرأة نائحة يستمعن إلى غنائها  
حتى تبتل بوشياتهن بقطرات الدمع .

تقول أم خضر وهى تفك بقشتها فى حوش أحد البيوت :  
- كأن الصوت يأتى من بيت « فلان » .

فتضرب أم سليمان على صدرها الذى يكاد قفصه أن يشق  
الثوب :

- ويه ! عنده زوجتان أراهما كل جمعة فى السوق .  
وتحرك أم خضر أناملها بشكل مروحة ثم تستغفر ربها ثلاثاً  
وتهمس :

- وعنده بنت عانس ! الله أعلم .  
فتصفق أم سليمان كفاً بكف :  
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. ولكن يا أم خضر هذه واحدة  
تنعى ولدها .

تَنْفُضُ أم خضر عباؤها وتهب واقفة :  
- الشكوى لله . والله لا ندرى ما هى « السالفة » ( القصة ) .  
وتخرج .. تترك السؤال مطروحاً : ترى هل يأتى الصوت  
من بيت فلان حقاً ؟؟ وتكاد المرأة تؤكد كلام أم خضر لتريح  
خاطرهما .. لكن « عَبدَة <sup>(١)</sup> » « أبو وزَّان » تهز قناعتها غير

---

(١) « عبدة » خادمة مملوكة . غزوية اسمها .

الكاملة حين تجيء في المساء لتوصل غرضًا ! جلست وتجشأت  
فانتشرت في المكان رائحه فجعل . فهفت أم سليمان بمهفتها وهي  
تزم شفيتها قرأ :

- الله هداك يا « غروية » كأنك أكلت عشر شدات من الفجل .  
ابتسمت بخجل :

- والله صحيح يا أم سليمان ... رَعَيْتُ اليوم بالفجل دون  
أن أدري .. وأنا في طريقي ظهرًا من الدكان .. جاءني ذلك  
الصوت الشاكي .. تعوذت من الشيطان لأكمل طريقي ، لكن  
الشيطان جبّار ، وسوس لي ، من هنا الصوت ، فأمشي ، لكنه  
غاب حين وصلت وكأنه يأتي من الخلف ويهمس لي : من هنا  
.. فأتبعه .. وأحس بالجوع فأكل من الفجل . ظللت ساعة  
وأكثر حتى كاد يؤذن العصر ولا فائدة ، الصوت يهرب إن لحقته  
.. ويلحقني إن تركته .. و ... قاطعتها أم سليمان :

- ما الذي يجبرك ؟ غيرك فعل ما فعلت .. ولا أحد حتى  
الآن استطاع أن يعرف صاحبة الصوت أو مصدره .  
فتفاخرت « غروية » بصوت أبيح :

- ويه .. يرحم والديك ، بدأ الناس يتهايمسون . وتفجّر  
فضول أم سليمان بفرح :

- بماذا ؟ من تهامس ؟؟

تهربت غروية من ذكر أى اسم :

- الناس .. أقصد بعضهم .. وحتى عمى « أبو وزان »

سمعتة يهمس أن الصوت يأتى من بيت « أبو شهاب » .

ثم نفضت ثوبها : والله أعلم .

قالت أم سليمان :

- تقولين « أبو وزان » قال هذا ؟

وانثر رعب على وجه غروية :

- الله يخليك يا أم سليمان . لا تقولى أننى تفوّت بهذا ..

الله أعلم .. قلت لعمتى حين لامتنى على تأخرى ونقص الفجل

الذى معى أننى كنت أدور وأبحث عن مصدر الصوت ، وأننى

فعلاً لم أتعرف أو أقنع بمكان ..

- وماذا قالت ؟

- سحبت الفجل من يدى بغيظ . وعند الغداء سمعتها

تحكى قصتى لـ « أبو وزان » وهنا همس بما قلته لك .

وعدها أم سليمان بالألا تنطق بما سمعت ، وحين تركت

غروية حوش الدار ، كانت أم سليمان تقف وفى خيالها خواطر ،

وصور ، وتهيؤات ، ثم مشت وهى تهمس لنفسها : الشكوى لله

الشكوى لله .. سأخبر « أبو سليمان » بما قاله « أبو وزان » .



صارت الأغنية تتردد على أفواه النسوة وهن يخبزن خبز الرقاق .. أو يغسلن الثياب ، حتى وهن يفركن القدور السوداء بالرمل . وانتقلت العدوى إلى الأطفال صبية وبنات ، فأخذن يرددنها ليل نهار رغم صراخ آبائهن فى وجوههن ووجوه أمهاتهن اللاتي يرددن الأغنية .

وأصبح الأمر اعتيادياً .. المازون يسمعون ، يبحثون ، ثم يعجزون . والنسوة بفضولهن يخترعن كل يوم حكاية ، والرجال يستغرقون ويهربون من مناقشة الموضوع . حتى كاد الناس بعد ذلك أن يتجاهلوا الأمر .. أو ينسوه تمامًا .

ذات صباح تعكرت السماء بالغبار الأحمر . كان « ناصر » يمسك بيد أخته « وضحة » يقطعان الطريق من البيت إلى المدرسة . يوصلها أولاً ثم يكمل طريقه إلى مدرسته ليعود بعد الانصراف ثانية ، فيجدها تنتظره حاملة دفاترها ، وباليد الأخرى عصا من الحلاوة تمصها بتلذذ ، تعطى له نصفها ما أن يصل . فى ذلك الصباح تأخرا فى النوم .. لذا كان يجزها من يدها راكضاً .



صرخت :

- لماذا تركض ؟؟

- لقد تأخرنا ..

وتوسلت بصوت طفولى :

- لا تذهب من طريق « الحوطة » أريد أن أمرّ على الدكان .

كررت وهو يجزّها :

- لقد تأخرنا . اشترى الحلوى من قرب المدرسة .

وبإصرار قالت :

- لا أريد .. لا أريد ..

صفعها صفة خفيفة على وجهها .. وشدّها إلى الحوطة ،

يقطعانها إلى الشارع الآخر .

كان ملح السماء الأحمر يزداد .. والهواء يتلاعب بأوراق

الأكياس وبعض القاذورات ، والحوطة خالية تمامًا إلا من عترة

تُركت لترعى بعض الورق والفضلات .. وهما يركضان رغم

الحصى والعلب الفارغة . وفجأة هوت أخته منكفئة وصرخت :

- إنك تسحبنى .

- لقد تأخرنا . هيا .. قومي .

وانحنى ليرفعها عن الأرض ، فاصطدمت عيناه بكومة من

التراب المبلل .. وقد تبعثر بفعل سقوط أخته عليه . رفعها ..  
نحّأها جانباً ، نظر إليها وتساءل :  
- ما هذا ؟

فصرخت فيه كأنها تود الانتقام منه :

- هيا .. لقد تأخرنا .

وضع سبابته على شفّتيه :

- هس . لئّر ما هذا أولاً .

فجأة عوى الكلب ، فارتجفت الصغيرة ، لكنه هذأها ..  
وجلس بقربها .. وأخذاً يتأملان الكومة الرطبة .. وتساءلت  
العيون الأربع .. تباعدت .. وتلاصقت .. ثم عادت تعانق  
كومة التراب .

مدّ يده .. أخذ ينبش الكومة فصاحت أخته بصوت  
مرتجف :

- لا .. لا يا ناصر .. يمكن أن تكون حية .

هدأها :

- الحية لا تدفن نفسها هكذا .

ويده لا تزال تنبش .. وتنبش . حتى بدأت تغوص بعد  
ذلك . وإذا اصطدمت بشيء ، التفت إلى أخته :

- وجدته .

شهقت :

- ما هو ؟؟

- كنت !

فرحت :

- كنت ؟ ذهب يعنى !

قال وهو يكمل رفع التراب

- ذهب .. فلوس . المهم وجدنا كنتا . وحفر .. ثم مد

كلتا يديه الصغيرتين ، وانتشل صرة من القماش الأبيض . نفص  
عنها التراب ووضعها بينه وبين أخته :

- هيا .. فكى هذه الخيوط .

وانفرجت الصرة عن مشهد جعلهما يقفزان صارخين بصوت

واحد : يُمه .. يُمه ..

تتلجت أطرافهما لبرهة .. والكلب الذى كان يعوى فى آخر

الحوطة اقترب .. وصلب أذنين جرباوين ولسانه يلهث ، ثم

اقترب . وأخذ يشم الصرة ويرفع رأسه نحوهما .. ثم يدور ..

ويدور بينما عيناها تتقاذفان الخوف والسؤال .

نطق أخيرًا بكلمات عوجاء :

- هذا ولد .

هزّت رأسها بإيجاب ، ولمح دمعة على خدّها تلوّنت بلون  
« الطوز »<sup>(١)</sup> الأحمر .

طرد الكلب بحركة من يده .. ولمّا لم يتحرك أمسك  
بعلبة فارغة ، قذفه بها .. ثم بعضا . لحقه حتى ابتعد  
قليلاً ، وعاد إلى أخته التى مدت أصابعها تتلمّس جسد الطفل  
الطرى . وحين دنا منها سحبت يدها خجلى . فأخذ بدوره  
يتفحص الطفل . يشد ساقيه ويديه .. وقال :

- هذا ولد ميت .. ولكن !

وبكت :

- واى .. أنا خائفة .. هنا يدفنون الأموات ؟ ؟ لأمس  
كفها الصغير ليزيل بعض هلعها :

- لا .. يدفنونهم فى المقبرة .

وأشارت بإصبعها :

- وهذا ؟؟

- لا أدرى .

---

(١) الطوز : الغبار الأحمر الذى يأتى فى الصيف .

ثم انكفأ يلفّ الطفل بقماشه ، وغيره من الصبيّة والبنات  
بدأوا يهرعون عبر باب الحوطة . يقتربون . . يقتربون . وقبل أن  
يكمل وضع الطفل فى حفرة كانوا يتحلقون حوله متسائلين . .  
لكنه صرخ فيهم :

- ابتعدوا . . لا عليكم فى هذا الأمر .

ونار صراج الأولاد . . ثم امتدت يد أحدهم لتشد « ناصر »  
من فوق التراب . . وسحب الصرة البيضاء وفتحها أمام أعين  
الجماعة التى ما كادت ترى المشهد حتى تطايرت ربّما .  
وتراكضوا إلى بيوتهم ليعلنوا الخبر . فشذ على يد أخته . .  
والوى راكضًا هو الآخر ناسيًا المدرسة التى خرج إليها مسرعًا  
هذا الصباح .



سرى الخبر سريان النار فى الهشيم . وخلال وقت قليل  
كانت الحوطة تعج بعشرات الرجال والنساء وبعض الصبيّة  
الحفاة فى دشايش النوم المقلّمة القصيرة يفركون أعينهم التى لم  
تشبع من النوم .

أخذ بعض الرجال يهش الجموع ، لكن الجموع تبعد من جهة  
لتزدحم من جهة أخرى . وبدأ شجار بعض الصبيّة ، وكان نازًا

قديمًا قد استغلق فجأة بينهم . بينما تقرص أفخاذهم وزنودهم  
أصابع الأمهات اللاتي يردن أن يسمعن كل كلمة ينطق بها الرجال  
المتحلقون حول جثة الطفل التي أصبحت مشاعًا لكل الأعين .  
قال أحدهم :

- نواربها التراب .

اعترض آخر :

- هذه ليست مقبرة .

تنهد ثالث وتعوذ :

- من الذى فعل هذه الفعلة ؟

صرخ صوت :

- أقسم أنه « ابن حرام » أرادوا التخلص منه !

هذاه رجل :

- سَمُّ بالرحمن . لا تُقسِم قبل أن تعرف الحقيقة . لكنه

احتدَّ أكثر :

- حقيقة .. أية حقيقة ؟

وأشار بيده إلى الجثة وأكمل :

- الحقيقة أمامك .. ولست أعمى .. جاهل ميت مدفون

فى حوطة .

عاد يهدئه :

- صحيح .. صحيح .. لكن يُمكن !!

- لا يمكن .. ولا يصير .. هذه فضيحة تتوارى  
وتتكشف .

كان الغبار الأحمر قد تزايد ، والهواء يرتفع ويهبط فيحمل  
معه الورق .. وبقايا القمامات . حتى عباءات النسوة بدأت  
تتطاير ، ولمح أحدهم ساق امرأة فاقترب منهما :

- أنت .. خذى ولدك وارجمى إلى بيتك ..

ولم ينته حتى كان لسانها ينفلت بالصراخ :

- ألم تجد غيرى ؟ كل هؤلاء - وأشارت بشكل نصف  
دائرة - كلهن ولا تجد غيرى .. أم أننى واحدة من أهل بيتك  
لتحكم بى ؟

حمل الرجل نفسه وابتعد يهز رأسه .

أخيراً جاء صوت أبو يوسف .. الرجل الثقى :

- يا جماعة الخير ! صلوا على النبى . نحمل الطفل إلى  
« الدختر<sup>(١)</sup> » أو إلى « الأمن العام » ونسلمه هناك والحكومة تتصرف .

---

(١) الدختر : الطيب .

وتدخل أحدهم :

- لماذا لا ندفته يا « أبو يوسف » وأحدنا يخبر  
الحكومة . حرام أن نحمل جثة الطفل بهذا الشكل . وافقت  
عدة أصوات :

- هذا أفضل .. هذا رأى معقول .

وتلفت « أبو يوسف » يستعرض الجموع .. والصغار  
وأشار :

- وهؤلاء الناس ! هل سيتركون الأمر بسلام ؟

- صدقت يا « أبو يوسف » صدقت .. صدقت ..  
همهمات انطلقت ، وكل وجه يستعرض الوجوه الأخرى ، وأبو  
يوسف يقترح :

- هل يتكفل أحدكم بالذهاب إلى الحكومة .. وآخر  
بحراسة الجثة ؟ أما أنتم ...

وشق طريقه بين الناس :

- أرجوكم .. كل إلى بيته .

وحين لمح وجوه بعض الأولاد الكبار صرخ فيهم :

- وأنتم .. لماذا لم تذهبوا إلى مدارسكم ؟

تراكض بعضهم بينما ردد باقون :



- الدنيا « طوز » عمى أبو يوسف .

هشهم :

- زين .. زين .. يا الله .. كل واحد على بيته .

تفرق الجمع .. بقى اثنان قرب الجثة التى واروها التراب ،  
وانسحب ثلاثة فى طريقهم إلى التبليغ .

لم تتفرق النسوة .. سرن جماعات .. وأحاديثهن تتطاير  
مع تطاير الغبار ولقاذورات .. وكل واحدة تتساءل :

- هل يكون الطفل ابن فلانة .. أو فلانة .. أو فلانة ...  
فى الحى المجاور نساء معروفات ! لِمَ لا تكون إحداهن قد  
أرادت الخلاص من الطفل ؟ وتساءلت أخرى :

- ولكن ! لماذا فى الحوطة .. لماذا لم تدفنه فى حوش  
بيتها ؟

- شىء عجيب . هذه حكاية لم تخطر على البال ! ولكنى  
أؤكد أنه ابن حرام كما قالوا ، وإلا لما تخلصوا منه .  
سخرت واحدة :

- كأنك ترين ابن حرام لأول مرة ! كم من طفل وجدوه مع  
« مشيمته » فى « البلدية » بين الأوساخ !  
- صحيح .. لكن هذا ميت .. وربما مخنوق !

- الخوف .. الخوف يا أم أحمد .. أو ..

التفتت إحداهن إليها :

- أو ماذا ؟

- الله أعلم .. ربما يكون ابن عائلة !!

وضعت النسوة أكفهن مفروشات فوق رؤوسهن ورددن :

- الله أكبر .. الله أكبر .

وشهقت واحدة بصوت عال :

- يا جماعة .. تذكرت .. أينكن عن الصوت ؟؟

- أى صوت ؟ ماذا تقولين ؟

انطلقت التساؤلات من كل الألسنة بفضول ، وكأنها تهزأ من

جهلهن .

قالت المرأة :

- أى صوت ؟؟ كأنكن نسيتم !

وأخذت تردد :

« قلبى على طوير خضر ..

شالوه من إيدى ... إلخ »

وقاطعتها إحداهن محتدة :

- بَسْ .. هذا غباء .. الصوت الذى نسمعه صار له شهر ..

اعترضتها أخرى :

- ما المانع أن تكون أم الطفل ؟

عادت الأولى تدافع عن وجهة نظرها بذكاء تفخر به :

- لقد رأيتن الطفل : هذا مدفون جديد .. وذلك الصوت

قديم .. فهل تبقى جثة الطفل سليمة هكذا ؟؟

ساد صمت .. كأن كل واحدة تلعن غباءها .. وتهامسن :

- صدقت .. صدقت .

عادت الأولى وكأنها تريد أن تعيد ثقتهم بأنفسهن :

- كلامكن عن الصوت صحيح .. والله أعلم .. ربما

أخذوا من صاحبه الطفل عنوة .. ودفنوه لكنه على أية حال

ليس هذا الطفل .. هذا له أم أخرى أرادت التخلص منه ..

ومن يدرى ربما أهلها ... ثم ضحكت :

- ومن يدرى أيضًا .. ربما غدًا نسمع أغنية أخرى . قالت

إحداهن وبوشيتها تلتصق بفمها :

- إن كانت له أم مغدورة .. فما أن تسمع حتى تهرع إلى

المكان .. أما إن ... وأكملت أخرى :

- إن كانت هي وأهلها الذين تخلصوا منه فلن تتحرك .

- غدًا نسمع الأخبار .

قالت واحدة بحسرة :

- من أين يا حسرة ! الحكومة ستأخذه وتدفنه وتضيع قصته  
كما ضاعت قصص أخرى قبله .



ولم يكن مقدراً أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها  
حكايات .. فحين كان المارة يسمعون بكاء طفل فى أماكن  
البلدية المنتشرة فى الأحياء . أو عند أبواب المساجد .. أو  
فى السوق يجدون طفلاً فى « زيبيل <sup>(١)</sup> » تثور الأفاويل ..  
تلمع الشائعات ثم تصدأ بعد ذلك وينام عليها الغبار  
والنسيان .



استيقظت الأذان وصدى الصوت النائح يشق المسافات ،  
يعبر إلى الوجدان ، يهز النوم الراقد فى الأجفان .. ومنذ كبر  
المؤذن داعياً لصلاة الفجر كانت الأغنية الحزينة تنطلق كصلاة  
تشق رقعة السماء التى هدا نزيها الأحمر . لم يعد الصوت وهماً  
أجرد .. ولم تعد الأغنية مجرد صدى .. إنها حقيقة تؤكد

---

(١) زيبيل : قفّة .

نفسها اليوم ، وتمزق شرايين الصّباح المتنفس بعد ليلة طال فيها  
السهر .. وكثرت الأقاويل .. والتخمينات .

نفض الناس عنهم ذَبَقَ الأجساد ، والرجال فى طريقهم  
إلى المسجد تغيرت خطوتهم .. ساروا باتجاه الصوت الذى  
تأكدوا أنه حتى يصرخ من حولهم .. ويقترب كلما اقتربوا  
.. وسحبت النسوة عباءتهن وخرجن ، يلتقى فوج بآخر ،  
يلحق بهن الأطفال والصبية .. والرضع على الأذرع لم  
يغتسلوا من بولهم بعد .. وربما لم يرضعوا . الصباح يحمل  
الرنّة الحزينة .. لا يسمع سواها ، وسوى صوت الأقدام ..  
يحذف أحدها علبة مبعوجة فتثق ثم تخرس .. وقدم تحذف  
عصا فطير مستغيثة .. وخبطت قدم فى « براز » أحد الصبية  
.. فسحق نعل حذائه على التراب الخشن ، وفاحت رائحته  
القديمة ، فابتعد الناس مهرولين كمن تلحقهم عصا إبليس ..  
والصوت يقترب .. ويقترب كلما دنوا من الحوطة .

وعند بابها توقف الجمع .. كان الصوت راقداً فيها . عارياً  
هذه المرة .. يؤكد حقيقته بنواح مذبوح .

اندفع الفوج .. وعلى التراب الرطب .. كان جسدها  
مُلقى .. عباءتها تنسدل عن نصفها العلوى فتبدو جديلتان

فاحمتان تمتزجان بالتراب .. وصوتها يمتزج بدمعه ، جبارًا كأنه  
يعنف هذا العالم الراقد تحت جذور الخوف وأتربة النهارات  
المرّة المتعاقبة .

لم تجرؤ امرأة من قبل أن تعلن عن نفسها ، واليوم ! ها هي  
قد انكبت على القبر الفارغ ! تنبشه بأظافرها .. مزقت رمله ..  
وطحننت حصاه ، وحين لم تجده فاح عواؤها البائس ..  
ورددت الأغنية التي ربما كانت لأم مفجوعة قبلها .. أو  
لأمهات تواد قلوبهن فى الليل تحت الأرصفة الشرهة للحم  
الخطايا الدائمة .

انكفأ رجلان .. رفع أحدهما العباء ليستر وجهها ..  
وأمسك الآخر ذراعيها ليقتلعهما من على التراب . لكنها التصقت  
بالأرض التصاقًا يتحذى الأذرع القوية الممتدة .. غرست كفيها  
فى القبر المفتوح وصرخت :

- دعونى .. أموت . لقد قتلوه .

لم يكن همّ الرجال مُسلطًا على معرفة المرأة ، فهم حتى لو  
شاهدوا وجهها تحت أشعة الشمس المشرقة لما عرفوها .. لكن  
فضول النساء كان يغلى .. كل تريد أن تلمح ولو طرفًا ، عينا  
.. أو شفة أو خدًا .. لعلهن يحدسن من تكون .

لكنها لا ترفع وجهها .. ولا تشعر بوجود من حولها ..  
لا تحس بالفضول القاتل المطل من العيون ، لا ترى حولها إلا  
أشباحاً لأيد مزقت البارحة قلبها .. واختطفت الطفل من بين  
فخذين استسلما للعشق ذات ليلة .

\*\*\*

تجذرت المرأة فى الأرض .. تسكب عصارة الروح  
الجريحة .. وتنبع آهاتها كما تنبع نافورة دم من أرض داستها  
أقدام دخيلة نجسة .. وصوتها يعلو .. وينخفض مبللاً  
بالأسى .. ممزوجاً بنغمات كأنها حدّ السيف يذبح سامعيه ..

« أصرخ وجمر فى الحشا ..

هذا ثرى وليدى

هذا .. ثرى وليدى » .

وتهطل دموع الرجال الذين يحاولون انتشالها .. لكن  
الجسد ثقيل .. كأن آلاف الرمال والأتربة والحصى دفنت فيه .

\*\*\*

كان النهار قد شعشع .. جدائل باهتة بلون الوجوه ..  
ونواح النسوة .. يتقاطر .. كل تقف فى مكانها تغطى صفحة

الوجه بيوشية سوداء رطبة . لم تعد واحدة تبحث بين الفوج عن  
شبر تطل منه لتعرف وجه المرأة . كان الحزن قد تدفق إلى  
صدورهن . فمات فيها الفضول .. ماذا يهم أن يُعرف وجه  
المرأة ؟ كان الغضب يلزم آثات البكاء .. يؤذ لو يصرخ فى  
وجوه الرجال المتحلقين ... أن يشير بالأصابع ! أن ينفلت كما  
تنفلت آثات المرأة ! وكما انفلتت جدائلها السوداء تتعفّر بتراب  
الأرض .. بملحها الذى رُشّ على جثة الطفل ... وكانت  
العيون تتساءل : أين ذلك الرجل الذى شاركها الفعل وزرع  
البذرة ؟؟ لماذا لا يأتى كما جاءت !! ولا يبكى .. كما تبكى  
.. ويتمزق .. كما تتمزق جوارحها ؟؟ لكن الغضب  
لا يخرج .. والصرخة حييسة تخشى الانفلات لترتاح من ثقل  
سنوات الصمت .

حاولت إحداهن أن تشق طريقها .. وتقرب حامله طفلها  
الرضيع .. وذت لو تمدّ يدها به إليها .. وتستحلفها بالله :  
- خذى .. هذا هو ابنك .. لم يمت .

لكن الخوف المنسوج كخيوط العنكبوت أوقف  
المحاولة .. وكذلك الصرخة الداوية التى ارتعد لها الفوج  
كله .. واستفاقت منه عيون الرضع النائمة . صرخة المرأة مزّقت



وجه الفجر المتفتح .. ثم ارتدت سكينٌ شقت الصدر الذى  
تمزق ثوبه .. وانكفأت بلا حراك .

\* \* \*

حين تفرقت الجموع تسحب خطاها بحزن تحمل عثار  
طريقها التى ما استطاعت جدائل الشمس أن تنيرها .. كانت  
تتهادى إلى الأسماع تلك الأغنية ! حزينه .. لا تزال .. لكنها  
شديدة الوقع .. تخترق الآذان وكأنها تطرقها بآلاف  
المطارق .. توقف فيها شيئاً .. تذكر أن الصوت حى ..  
وأنه .. سيبقى .

وتقول الحكاية إنهم حين جاءوا ليحملوا جثة المرأة ..  
وجدوا حليب ثدييها المكتنزين يصب فى القبر .. ويروى  
التراب .

دفنوها .. دفنوا سرّاً عاش بصدرها .. ومات معها .  
لا أحد يعرف الحكاية .. وحدها فقط كانت تعرفها . ولو بقيت  
عينها مشرقتين على هذا الأفق الجاحد لروت حكايتها التى  
تقول :

.....



## الموت فى لحظة البدء

الأضواء الضعيفة المنبثقة من نوافذ البيوت الفقيرة ترسم مربعات ومستطيلات على الشارع الترابى الضيق . رائحة الفحم المنبثقة من بين المساكن المجدورة تختلط برائحة عرق السكان الذين هدأت حركتهم تقريباً إلا من بعض همهمات خافتة كانت تصدر عن بعض النوافذ شبه المفتوحة وكأنها تريد للمصدر أن تستنشق هواءً منعشاً يزيل رائحة الفحم المحروق بالكاز .

لم تكن ثمة حركة واضحة فى الشارع . . سوى أصوات القطط التى تتداعب فوق الأسطح أو تشاجر ويلاحق بعضها بعضاً عبر الأزقة الضيقة التى تتلاقى فى النهاية عند الساحة الخلفية ، حيث ييسط القوم فى الصباح بضائعهم وخرفانهم ، ودواجنهم ، وينادون عليها بأصوات هى أقرب إلى الفحيح منها إلى الأصوات البشرية المألوفة .

الصمت والظلام يثيران نوعاً من الرهبة ، لكن خطواتها المعجول لا تصدر أى صوت . حتى حين تعثرت بحجر كان أبناء الشارع يحتفظون به فى هذه البقعة من الأرض كدليل

لحدودهم مع الشارع المنعطف .. لم يصدر أى صوت عنها  
خشية أن يُسمع وقع عثرتها فى هذا الليل الصامت المتراخى  
وبعدها تطل النظرات الفضولية النهمة لسماع أى خبر جديد  
يصبح عند الفجر حكاية تتسلق الجدران وتقفز الأسطح  
لتدخل إلى البيوت المجاورة ثم تتعدها إلى آذان الحى كله ،  
لتسرب بعد ذلك عبر القنوات المرة إلى الألسن ، تجرش  
بها كى لا تصداً ....

تسير مستترة تحت الجدران ، لكنها تسمع الهمس المعتاد  
كل ليلة تصاحبه خشخشة المسباح :  
- اللهم استر على عبادك .

وحين تقترب الخطوات بمحاذاتها تسمع تنهيدة راعشة من  
القلب .

لا يهم .. إنه « أبو محمد » . لن يزعجها إلا بنظرة اللوم  
ممزوجة بالود . يرشقها بها كل ليلة حين يراها فى اللحظة  
نفسها .

وحين يتعد تسارع فى خطوها رشيقة كحمامة تخلصت للتو  
من بيضها . ورغم ديبب الخوف الذى كان يرعش أطرافها فإنها  
من أجل إخماد ديبب الشوق وصراعاته تهمل هذه الرعشات

وتسرع قاصدة الحبيب الذى ينتظرها كل ليلة فى غرفته التى تمتاز  
بباب آخر يطل على الشارع .

قبل أن ترفع يدها لتطرق الطريقة الأولى ، تكون ثمة يد تفتح  
الباب الجائع وتلتهم كفها وتسحبها إلى الداخل .

- حسبتك لن تعجبنى الليلة .

الصوت مرتبك ونغمته جافة ، مرتجفة :

- لو أنه ينام ولا يصحو أبداً ...

تمسك يده متوسلة :

- حرام .. لا تقل هذا ..

يلتفت صوبها ونظرة تساؤل تقفز من عينيه :

- وما الفرق بين أن يعيش أو يموت ؟

ترتخى يدها .. وتعلم أصابعها الباردة .. وتهمس :

- لا فرق ! لكن وجوده لا يحرمك منى !

وكانا قد وصلا إلى فراشه ، فبسط جسده على الفراش

مواجهاً النافذة الكبيرة ، وشبك كفيه ثم توسدها ، عيناه من

خلف الزجاج المجرح ترقبان النجوم ببريقها . تتحدى بريق

عينيه . المسافات بين النجوم ، تتفاوت الأعداد الملتصقة ؛

تقل فى مكان وتكثر فى مكان آخر . ليس هناك أى تناسب ،

- لا فى الحجوم ولا فى المسافات و لا فى البريق .
- واحد ... اثنان ... ثلاثة ... خم ...
- لا تعد النجوم .. حرام .. غدا تنبت التآليل فى أصابعك .
- ينكفى على بطنه .. يرفع ساقيه ويشبكهما ، ويؤرجحهما
- فى هواء الغرفة الدافئ بينما ضحكه المتواصل لا ينقطع :
- بسيطة ... سأسرق بعض حبات الأرز فتموت التآليل .
- ويستدير ناحيتها :
- أتدرين من أين سأسرق حبات الأرز ؟ ... هه ؟
- قبل أن تفتح فمها يجيب :
- من بيت « أبو غنام » . عنده كثير من أكياس الأرز
- المخزون ... أليس كذلك ؟
- تطأطأ رأسها. ويدوى فى أذنيها صوت « أبو غنام » :
- ( - أترين ! إننى « شيخ العيش » ...
- ولكن لماذا تخزنه هكذا ؟ إن السوق فقيرة منذ أشهر ،
- وأسعار الأرز تقصم ظهور الناس .
- الضحكة المجلجلة يرجع صداها إلى حلق « أبو غنام » .
- الغرفة مليئة بالأكياس ، لا فراغ يرد صدى الصوت
- المجلجل .

- غيبة أنت : لا .. بل تتغابين . كلما قل الأرض ارتفع  
السعر ، وكلما ارتفع ازدادت ثراء .. وإلا من أين سأتيك  
بالنقود ؟

وينظر لها نظرة ذات معنى ، تغوص النظرة إلى أعماقها حتى  
تصل إلى كل عرق ..

النبض يتسارع فى أنحاء جسدها الممتلئ :

- هل توافقين من غير نقود ؟

ويشدها ...

يلقى بها على الأكياس الممتلئة حتى الأعناق فلا تعود قادرة  
على التنفس بينما يتنفس كيس الأرض ) .

صوته ثانية يعد النجوم المبعثرة . خمسة وعشرون ... ستة  
وعشرون .. سبعة وعشرون ...

تخطف يده .. تسحب أنامله داخل فمها الجائع تضغط  
بأسنانها على أطراف الأنامل فيخاطبها مازحاً :

- لا تضغطى كثيراً ستنفجر التآكل فى فمك ، وبعدها  
ستضطرين للذهاب إلى المداوى « أبو حسين » وستجرعين المر  
والصبر ...

- « آه .. يا صبر أيوب على بلواه » .

- كيف تحتملين جثة « بو حسين » ؟ لو كان عندى ما أسد  
به عيونك ، وفمك ، وكل ثقبوك لما تركت « بو حسين » وغيره  
يتكدسون كأكياس الطحين بديدانها فوق جسدك ... آه ... الله  
يفتحها على .. العزوية قاتلة .

ويجيئه صوتها معاتبًا :

- عزوبى ؟ أيها الماكر ! قبل ليلتين كان ابن « الحجى  
حمد » يخرج من حظيرتك هذه مسرعًا يعض دشاشته ...  
ويبتسم بشيء من التحدى :

- لا تحاولى اتهامى . كنت أمازحه فقط .. هى ..  
هى .. هل أريك كيف مازحته ؟  
ويشدها .. فتزفر :

- أف ابتعد .. لا أريد أن أرى ، ولا أسمع ، ولا حتى  
أجرب ...

وينظرة تحدّ يصفعها :

- ولا أنا .. وأنت تعلمين هذا تمامًا .

يلقى برده كماء النار على وجهها ويستدير . وتبتلع الغصة  
داخل حلقها كطرفى موسى جائعة وتحاول أن تنسلخ عن هذه  
اللحظة فتنسى . لكنها تحس بشيء كالطين الجارف يحيط بها .



ويبتلع قدرتها على الهرب إلى عالم الأحلام . فتهوى فى رثة  
الحزن كما تهوى جرثومة فى صدر آدمى .

أحست بيده الناعسة تبحث عن أطراف أصابعها . تعطيه  
الكف المشتاقة لوثة قد تدفعها من عالمها الثلجى ، إلى عالم  
أكثر دفئًا .. لكن يده تعصر كفها بقسوة :

- كنت ذات ليلة فى أحضان المهووس الأجرب « فهد » .  
ترتجف :

- كيف عرفت ؟

يزعق بصوت يكاد يشق فم الليل المغلق :

- الخنزير ابن الخنزير يتغنى بك .. يقول الشعر .

يجمع الحثالات فى ديوانيته ويعلنها بلا حياء !

يقترّب منها أكثر ... كفه تهرب مسرعة من كفها لتستقر

على عنقها معانقة بضاضته !

- والله لو أقدر لخنقتك الساعة ... كيف لا تخجلين ؟

إنه يتغنى بوجهك الباسم .. تبسمين له أيضًا ... ويعينيك

الوالهتين . ويفمك المجنون الظامئ أبدًا ...

يشد .. يعتصر لحم عنقها :

- هل قبلته بوحشية الملهوف ؟ أم تراك سكبت كل بلسمك

لديه فأنعشته يا فاجرة ؟

أحس بشفتها .. أرخى يده .. نظر إلى الوجه الدامع ..  
إنه يشبه صحراء مقفرة .. واحات حزن متشرة بين ملامحه ..  
خوف غريزي من الموت .. من العالم كله .. يطفو على  
مساحة شفيتها يبغى الانقلاب ، لكنه مكوم في وجهها كجسد  
ميت .

تبكى ....

لكنه صامت ...

تنبعج كشمعة ذابلة تنتظر لكنه يستدير إلى الناحية الأخرى  
.. إنه لا يفكر حتى أن يقول كلمة حلوة .

يلفها الظلام .. يصير أمواجاً كعيون عمياء تصنع ارتخاء  
جسدها المهمل وتجلد شوق وجهها الحزين . تنسل من قربهِ  
كانسلال الخيط من ثقب الإبرة .. لكنه يستوقفها ويصرخ في  
وجهها الباكي :

- لن تكوني لى أبداً .. أنت محرمة على حتى تخرجي من  
مستنقعات الآخرين ..

ترتخي يدها بالم .. فتبتعد عنه .. وقبل أن تصفق الباب  
تسمعه يزعق بصوت اختلطت المسرة فيه بالغضب والنقمة :

- لعن الله الفقر .

دقائق ... وكان الطريق المعتم يلتهمها ، أضواء النوافذ  
نامت تمامًا .. والهرة هاجعة لا تبدو منها سوى ألوان عيونها ،  
ورائحة الفحم صارت لها نكهة أخرى ... إنها الآن نكهة الرماد  
الممزوج بالماء .. الجمرات أغرقت .. وخمدت .  
لكن الجمر الذى فى داخلها لم يخمد بعد . إنها تحس  
بلسعة داخل صدرها ، تحرق إحساسها وتذكرها بلون  
الفحم .



دثرت الأعمى بالغطاء .. ثم نظرت إلى الوجه المتغضن ..  
الزمن شق خرائطه على صفحة الوجه الطيب .. دموع  
الشيخوخة تسيل من عينيه على الطرف الأيسر من وجهه حيث  
استدار ...

تنهدت ... وصوت داخلى يهمس :

- هذا الشقى .. الأعمى .. ليتنى مثله فلا أرى  
ولا أتعذب .. وأكل لقمتى بهناء كما يأكلها .. إنه لا يدري  
كيف تجيء لقمته .. لو عرف لكانت يدها قد امتدتا إلى عنق  
قبل يدنى جاسم ...

ويغريها ذكر اسمه .. تتمدد قرب والدها الكهل وتستقر في  
بحيرة صفاء ...

- آه يا جاسم . كم أهفو للسعادة معك ، أريدها سعادة تنمو  
كالعشب على أرض رطبة . أريدها جمرًا متوقدًا لا يطفئه ماء ..  
ولا نفخة هواء ...

وتنام .. واسم جاسم كالموسيقى في أذنيها ترقص لها كل  
عروقتها .



الساحة الخلفية تعج بالحركة .. البضائع منتشرة ...  
بعضها ارتقى إلى طاولات خشبية مهترئة الأرجل .. أو عرجاء  
أسندت إلى قطع من الطابوق المرصوص . وبعضها الآخر  
افترش الأرض قرب بائعيه .

بائع السمك يرص « زبلانه » ، ويرفع صوته متغنياً بسمكه  
الطازج .. وفي الجانب الآخر تتربع بائعة الدجاج والحمام ..  
أمام قفصها الكبير تحاور مشترياً لم يعجبه السعر .  
وحين أصرت على الثمن استدار مبتعداً . فبصقت على  
الأرض غيظاً .

الصبيان يلهون بينما تمتد أيديهم بين لحظة وأخرى في غفلة

من البائع لتسرق شيئًا من الحلوى المرصوفة على ورق يحتضر  
وحين يبدأ الشجار بينهم يُثار الغبار فيصرخ بائع الحلوى وهو  
يكشهم كما يكشف الذباب :

- يا ملاعين . ابتعدوا وإلا !!

أحد الصبية يلتقط حجرًا ويقذف به أحد رفاقه ، لكن الحجر  
يفضل طريقه فيصدم وجه الأعمى الذى يتكوز على دكة قرب أحد  
البيوت المطلة .. على الساحة . فيزقق رافعًا عصا بائسة :

- يا ملعون ! كدت تعمى عيني .

يضج الصبية بالضحك ويتحلقون حوله هازئين غير مكترئين  
بردع العارة من رجال ونساء لكنهم ما أن يلمحوا طرف عباءة  
« فطوم » حتى يفروا متفرقين .

- هلا .. هلا .. فطومه .. هلا عيني ..

- عمت عينك !

لكن الرجل لا يثور ويقترب متوددًا :

- ليش فطومه ؟ ليش عيني .. غيرى « مو أحسن منى » .

قبل أن ترد عليه لئنهاء تصطدم نظرتها بوجه « أبو محمد » .

أصابعه كالعادة تعانق المسبحة يفرق حباتها ثم يجمعها ،

وحين يقترب منها أكثر تسمعه يقول :

- متى ترتاحين من حياتك الضائعة هذه ؟  
ويجىء صوته حزينا :
- كيف يا « أبو محمد » ؟ وأين ؟  
ينتعش وجهه فجأة ، وتخرج كلماته من القلب :
- عندي يا فطومه .. سترتاحين .  
تحتبس الدمعة فى مقلتها وتسأل باستنكار :
- أتريدنى الليلة يا « أبو محمد » ؟  
ترعبه التهمة ! يتفرض فتهتز المسبحة بين أصابعه معلنة  
احتجاجه :
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. لم تفكرين هكذا ؟  
لأنهم جميعا يفكرون هكذا ..
- تندمج نغمة خطواتها وتتنظم . يسيران مبتعدين عن زحام  
الساحة .
- المسبحة تنتقل من يمينه إلى يساره بحركة مرتبكة :
- أنا لست واحدا منهم .. إننى أستهيك .. و ..
- قبل أن تدهشها كلماته يلتفت إليها مستدركا بعجالة :
- وبالاحلال ... على سنة الله ورسوله .. كل ليلة ..  
والى الأبد ..

لا تصدق !

تنظر له بعينين تاهت منهما كل المعانى . شىء كالضباب  
الفضى يطوف فجأة فيغشى نظرها وتهمس :

- وهل سأرتاح حقًا ؟

تجدد شجاعته المترددة ويقترب أكثر ويؤكد :

- سترتاحين ! أقسم لك بأنى سأعزك عزًا ما حلمت به .

تنظر إليه .. الخوف من شىء مجهول يسكن داخل العينين

السوداوين . نبض سريع يشل حركة أوتارها الصوتية .

تلتفت إلى الناحية الأخرى حيث أبوها الأعمى يمد ساقيه

بينما جيوش الذباب تصطف عليهما بهدوء .

- طبعًا .. طبعًا .. سأكلم والدك ..

ويبتلعها الزحام ...

\*\*\*

سيول البشر كأمواج من الحركات الآلية .. تشق الطريق عبر

هذه السيول .. فارة إلى الراحة التى تحلم بها ، إلى الوجه

الأسر الذى تقنات من رؤيته ، إلى القلب الذى تمنى أن تكون

داخله عرقًا أبدئيًا .

الشارع يخلو تقريبًا من المارة .. تنتظر الفرصة ثم تدلف من

الباب الخشبي . إنها تعرف كسله ، ستجده يتشاءب مستلذاً بالدفء ...

رائحة نعاسة تدخل إلى أنفاسها كالطيب . دفء الغرفة يثير فيها شيئاً من الشوق الأعمى الذي لا يعرف إلى أى الطرق يهفو .. تركع ركبتها قربه .. أناملها تداعب الوجه الناعس . وما أن يفتح عينيه ويراها حتى يجلس متلهفاً .

- فى هذا الصباح الباكر ؟ خير ؟

تحضن وجهه .. وتخشى عليه من الخير :

- التاجر « أبو محمد » .

يزفر ... وتنبع الزفرة من قلبه كما تنبع نافورة دمع من أرض حزينة .

- ما له هو الآخر ؟ أيريدك الليلة ؟

- لا .. بل يريدنى كل ليلة .. كل ليلة .. وإلى الأبد .

وترعشه الكلمات ، فيستفض غير مصدق :

- غير معقول .. « أبو محمد » ؟؟ لا أصدق ..

تتراخى الفرحة على وجهها بينما يتأكلها العذاب من الداخل

وهى تهمس :

- ولماذا غير معقول ؟ إنه يريدنى .



يقف غاضبًا كجذع شجرة فاجأتها الفأس بضربتها الأولى  
ويشير بسبابته إلى وجهها " دهوش ويصرخ باحتقار واضح :  
- أنت ؟ أنت التى تبعثرت فى أحضان رجال الحى . حتى  
المهووس الأرعن « فهد » الذى قال بك القصيد الفاحش فى  
ديوانيته .. وأمام « أبو محمد » !  
فغرت فاها غير مصدقة ...

الغضب يجلد وجهه فيشوه وسامته ، الرجفة تعتريه فيبدو  
كسعفة جافة ..

هو لا يصدق ! وهى لا تقوى حتى على مجرد التفكير  
بتصديق ما تراه .. ذبل كل شيء فيها فجأة ! مات كل عذاب  
السنوات فى قلبها . لقد فتح جاسم الجرح .. فأغرق كل  
العذابات السابقة ..

انكفأت تبكى كغزالة غرز الصقر منقاره فى لحمها ..  
تحاول الفرار فلا تقوى .. ينقض عليها كالمجنون ..  
يشدها من جديدتها . يرفع وجهها السابح فى الدموع ..  
ويستفسر فى جنون :

- وافقت ؟ هل وافقت ؟  
تبكى .. ولا ترد ..

لكن صفعته النارية تطلق صوتها فتصرخ :

- لم أوافق بعد .. جئت لأراك ..

يتشل يده التى تفترس جسدها :

- ولماذا تريننى ؟ وماذا تريدن ؟ أنت قذرة وأنا لا أريدك .. لقد

حلفت ألا ألمسك حتى تتحررى من مستنقعك ... والآن ...

يضرِب بكفيه ...

- « لا حول ولا قوة » .

ويرتمى بقربها .

- والآن تعلو نظرتك فوق حاجبك ..

عيناه تمثلتان برغبة ! ظنت بأنها ستكنس أثرية الخوف

والذهول المزروعة على قسَمات وجهها . لكنه حين اقترب أكثر

شمت رائحة الرغبة كحد السكين الملطخ بدم الذبيحة .

تحاول الهرب .. لكنه كان أسرع منها . يختطفها من

محاولتها . وينهال عليها بجسده . يده المرتجفة تمزق ثوبها

بوحشية . صوته كالفحيح السام داخل أذنيها :

- هيه ... فرصة .. يغريك طلب « أبو محمد » ، فتنسين

جاسم المحب .. العاشق .. الذى لم يمسك بعد كباقي

الكلاب .

وفى لحظة .. تصير كالزوبعة المسجونة بين الحوائط  
- لم أوافق ..  
يصك على أسنانه غيظًا ..  
- بل ستوافقين .. أمثالك دائمًا ينتظرون الفرصة التى  
تنتشلهن من الوحل .  
تدفعه بكلتا يديها .. لكن مقاومتها تنهار فتصرخ باكية :  
- إننى أريدك أنت ...  
يبتعد بجسده بحركة مفاجئة .. يلطم وجهه بعصية .  
وتسود لحظات صمت متوتر لا يقطعها سوى لهائهما ...  
تلم أطراف ثوبها الممزق .. صوته يصلها ممزقًا :  
- لكنى فقير .. لا أملك حتى ثمن ليلة !  
تنطبق شفتاها على الصمت . تنتشل عينيها بصعوبة من  
عينيهِ . لقد أحست بشيء ما يتهشم فى داخلها .. مصراع  
الباب .. أمامها .



## فى الليل تاتى العيون

فى بيت « السيد » كنت أفضى جزءًا كبيرًا من الليل .  
« والسيد » هذا رجل دين خير ، طيب .. له قامة ممدودة  
بكبرياء .. يرتدى القفطان ويضع على رأسه عمامة بيضاء نظيفة  
بلون لحيته الكثة المسترسلة حتى نهاية العنق .

جاء « السيد » من بلدٍ بعيد . حملته رحلته الطويلة من  
ساحل « إزمير » إلى بلدنا . فاستقبله الناس هنا بطيبتهم التى  
عُرفوا بها ، واحتفى به بعض رجالات البلد الكبار ، حتى  
أنهم ، كما أخبرنى والدى ، ألحوا عليه فى البقاء .. لكنه  
احتج بعائلته التى تركها فى بلده البعيد ، فما كان منهم إلا  
أن أرسلوا فى طلب عائلته . وحتى يضمنوا استقراره نهائيًا  
زوجه إحدى بنات الأسر البسيطة . وهكذا صار للسيد  
زوجتان رغم أنه .

فى الصباح كنا نتلقى العلوم على يده فى مدرسة « المباركية »  
فقد كان يجيد اللغة العربية إجادة أبنائها لها . وفى المساء كنا نتحلق  
مجموعة من الشبان الراغبين فى الاستزادة من علوم الدين حول

« السيد » فى المسجد ، فنستمع لدروسه وتعاليمه ، مستمتعين بطريقته فى الشرح ، وتركه المجال لنا للنقاش والسؤال والتعليق . ولهذا اختلف عن غيره من علماء الدين الذين كانوا يلقون بخطبهم علينا ولا يسمحون لنا بالنقاش . . أو حتى بالسؤال .

وما أن يُؤذَن لصلاة العشاء ونصلى ، حتى تنسحب أقدام الشبان مع غيرهم من المصلين ، خارجين إلى بيوتهم عبر الطرق المعتمة الخالية إلا من نفر قليل وبعض الكلاب والقطط الضالة الباحثة عن الزاد بين القمامات ومداعيب <sup>(١)</sup> البيوت .

أما أنا . . فكنت أرافق « السيد » إلى بيته ، بينما البيوت هاجعة تحت أسقفها الطينية ، وحمام الصبية ترقد على الأسطح بعد نهار السباقات المتبادلة . والسراجيات قد أطفئت معلنة راحتها متنفسًا غازًا يُسمَّم رئة الحجرات ، لكن أحدًا لا يعترض على هذا السم . فلا حيلة ولا بديل .

فى البداية رفض والدى بقائى وعدم مرافقة أخوتى إلى البيت ، وكرر على مخاوفه من الليل ، والوحدة فى طريق العودة ، ومن الظلام واللصوص . . ومن الجن والعفاريت

---

(١) المدعاب : فتحة يخرج منها المطر من فناء البيت إلى الشارع .

الذين لا يخرجون إلا بعد أن تخلو الطرقات من ناسها ،  
لكنى أصررت ، وتوسلت لأبى معلناً رغبتى فى أن أصبح  
ذات يوم مثل السيد أستاذًا ومعلمًا .. وفتيها . وقد  
ساعدتنى أمى فى إقناع أبى ، لكنها لم تغفل أن تذكرنى  
« بجنيات الليل » ذوات الأردية الهفافة والعيون الطويلة .  
وحذرتنى من أن أمر فى الأزقة الضيقة وأن أختار الطريق  
الرئيسية حتى وإن طال سيرى فيها .

كان السيد يفرح بوجودى .. وكنت أشتف أذننى بما أستمع  
إليه . أردد .. وأحفظ بسرعة . وكنت أدخل معه فى نقاشات  
منوعة بعد الانتهاء من التعليم . وسألته مرة :

- هل حقًا يخرج الجن فى الليل ؟

مسح بيده على لحيته الكثة البيضاء التى تصل حتى صدره ،  
ابتسم وقال :

- « وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون » .

لم يجب على سؤالى .. فظل يطرق رأسى ملحاحًا ...  
يغيب ثم يعود .

وفى ليلة ألصقت رطوبتها ملابسى على جسدى فكرت  
أن أختصر الطريق إلى البيت . فأدخل من « براحة

الزهاويل<sup>(١)</sup> ، وأسير فى الشوارع الضيقة حتى السوق  
المسقوف<sup>(٢)</sup> .

أحسست بوحشة الظلام ، والصمت ، إلا من صوت حرس  
الليل بين الفينة والأخرى .. يصرخ الأول : « صاحى » ؟  
فيرد الثانى من آخر الشارع : « صاحى » .

سرت سيرا ناعما كى لا أثير شكوك الحرس . لكن صوت  
خطوتى امتد ؛ سمعت شيئا كالصدى .. تباطأت .. فتباطأ  
الصدى .. وقفت ؛ فسكن الصدى .. كررت الفعل ، فجاءت  
ردة فعل هى بالتأكيد ليست لقدمى . ارتعشت ؛ فسرت الرعدة  
ريحا شمالية فى مفاصلى .. التفتُ : فإذا بها ورائى ...

طفلة . هكذا استطعت أن أميز حجمها ؛ لكن صورتها لم  
تنعكس فى عيني بكل تفاصيلها الدقيقة ، فالظلام قد خيم على  
السوق ولم يكن هناك سوى سراجٍ معلق فى زاوية من زوايا  
سقف السوق وقد ذبل فتيله . وهو ضوء لا يسمح بالرؤية  
الشاملة . ابتلعت ريقى .. مرة ومرة . هى صامته .. وأنا

---

(١) براحه الزهاويل : فسحة واسعة نوعا ما بالنسبة لضيق الأزقة ..  
وكل براحه يطلق عليها اسم مثل براحه البحر - وبراحه الدبوس .  
(٢) السوق المسقوف : سوق قديم ولا يزال .



أرتعد .. مططت خطوتي .. فمطت خطوتها ... الرجفة ..  
الرجفة لعنها الله تتمادى وتسرى حيثما تجد مكانًا فى داخلى ..  
وكان داخلى قد أصبح كالأسفنجة .. العطش يمتص الرعدة ..  
يتمصها بلا توقف .

صوت أمى أيضًا يفتح الأبواب داخل أذنى .. يأتينى  
فأذكر : « الجنيات يا عثمان لا تخرج عيونهن إلا فى الليل ،  
يعشقن الفتيان أمثالك .. ولا تتورع الواحدة منهن أن تجذب من  
يشيرها حُسنه وجماله إلى عالمهن .. تنشق الأرض ...  
وتسحبه . فلا يعود ؛ أو إذا عاد فإنه يظل مسكونًا » .

هل يعقل أن تحبنى تلك الطفلة التى تتبعنى ؟ أم تراها كانت  
تفعل ذلك كل ليلة دون أن أدرى حتى عشقتنى تمامًا وهى الليلة  
تظهر لتسحبنى إلى عالمها ؟

عيناي فى الظلام تنفرسان فى مواطئ قدمى .. كل خطوة  
أخشى أن يكون هناك شق فى الأرض .. فأسقط ، وأتوارى فى  
عالم الجن .

وصلت إلى البيت .. كنت متأكدًا من أن أبى لم ينام بعد  
وأنه ينتظرنى كعادته فى غرفته التى تقع فى دهليز البيت حيث  
يستقبل ضيوفه وأصحابه . يذى تدق الباب .. وتتفصض ؛ فتح

الباب ، يده اليسرى تحمل سراجاً قصرت فتيلته .. دلفت من فتحة الباب بسرعة ، أردت أن أصفقه ورائي ، لكن يدها منعتني . دلفت ورائي ، وعلى ضوء السراج الخافت لمحت عيني والدي تبيضان فجأة ففهمت أنها الدهشة .

ثقلت شفتاي ؛ أردت أن أتكلم ، أن أشرح لأبي سر هذه الرفيقة الصامتة ؛ لكنه أرخى يده بالسراج ؛ ومدّ يمينه وشدّ على كتفي بقسوة خفيفة وهزّ رأسه وهمس :

- قلت لك ولم تصدقني !

إذن فرفيقتي جنيّة ؛ فلماذا لم تسجنني معها إلى عالمهم وفضلت أن تجيء إلى عالمي ؟ إلى بيتنا ؟ ثم ماذا تنوي الآن ؟ يد أبي تحث جمودي :

- اذهب يا عثمان . أيقظ أختك .. لعل البنية جائعة .

أطعموها .. وجهّزوا لها مكاناً لتنام ..

لم ألتفت ، سرّت وهي تتبعني ، وصوت أبي يرتفع بالبسملة والتشهد . قالت لي أمي ذات يوم :

- حين كنا نرى الجن نسمي بالله فيختفون .

لكن رفيقتي لم تختف رغم بسملة أبي ، بل سارت ورائي حيث تنام أختي .. قطعت معي المسافة ما بين الدهليز

والليوان<sup>(١)</sup> وكانت الرعشة تجعل مشيتي خفيفة .. كنت كمن يطير .

أيقظت أختي .. وحين فركت عينيها وشاهدت رفيقتي شهقت ، ولمحت في وجهها هلعاً أرعبني أكثر من الهلع الذي أطل من عيني أبي .. ترى ، ماذا رأت أختي ؟ هل ألفت لرفيقتي ؟ حاولت فلم أستطع ، وكان رأسي قد تيس منذ اللحظة التي سمعت فيها خطوها ورائي .. قالت أختي بصوت مرتجف :

- تعال معي يا عثمان .. أنا خائفة .

رافقتها حتى وصلنا إلى « الملالة »<sup>(٢)</sup> المعلقة في حوش المطبخ فتحتها . تناولت قدر الأرو .. « وطاسة »<sup>(٣)</sup> اللبن . سكبت كثيرًا في الصحن ، وضعته على الأرض .. جلست رفيقتي ، أدارت لى ظهرها وقابلت أختي التي كانت ساقاها تنتفضان فتهزان كل جسدها .

---

(١) الليوان : مكان الجلوس . وهو المكان الذي يحيط بفناء الدار من الداخل .. ويكون مسقوفاً .

(٢) الملالة : وعاء من الأسلاك يشبه السلة . يوضع فيه الطعام ويعلق في السقف حتى لا تصل إليه الحشرات ويستخدم قديمًا بدل الثلاجة .

(٣) طاسة : وعاء مستدير من المعدن يستخدم لشرب الماء .

اندفعت رفيقتى إلى الصحن وفى أقل من دقيقة .. كان  
الصحن مغسولاً .

وقفت .. رفعت ثوبها .. وكنت أرى مؤخرتها تلمع فى  
ضوء الليل الوديع . فتحت ساقها .. وأختى تفتح فمها خوفاً  
.. واستغراباً ...

بدأت تبول ، وتبول مثل بقرة على وشك الولادة ..  
سيل البول كان يشق له فى تراب الحوش مجرى .. وفاحت  
رائحة كريهة ؛ حين انتهت قامت أختى .. سارت وهى  
تتبعها .. وأنا أتبع الاثنتين .. ولم أر وجه رفيقتى بعد  
ذلك .

قالت لى أختى حين جهزت لها المكان ورقدت :  
- أرجوك .. يا عثمان ، ابق معى .. أنا خائفة .  
هل أقول لأختى إننى خائف أكثر منها ؟ هل أفصح لها أنها  
قد لا ترانى غداً .. وأن هذه الرفيقة تبعتنى لتأخذنى إلى  
عالمهم ؟ هل أزيد فى اضطرابها وهلعها ؟  
- لا يا أختى .. لا تخافى .. إنما هذه طفلة ضالة .  
نفث أختى :

- لا .. إنها عجيبة .. غريبة الوجه .. و ..

- لا تخافى .. قلت لا تخافى .. نامى بعيدة عنها .. فى الصباح سنبحت عن أهلها .

\*\*\*

ما أن صاح الديك معلناً بدء يوم جديد ، حتى كانت يد أبى توقظنى :

- عثمان .. قم .. صلّ الفجر ثم خذ هذه البنية .. سر معها ، أعدها إلى المكان الذى لاقيتها فيه .

تعوذت بالله من الشيطان .. لم أكن قد نمت ، ولم تهدأ نفسى ، كنت أخشى أن أغمض عيني فأصحو لأجدنى فى مكان آخر غير بيتى .

أديت فرضى .. كانت تنتظرنى مستديرة عنى إلى الجهة الأخرى . انتعلت حذائى ، مشيت .. تبعتنى .. فتحت الباب ، خرجنا .. وحين صفق نسيم الصبح الباب ورائى ، تصورته يُصفق دونى وإلى الأبد .

نور الفجر يتلألأ .. ونسمة باردة تلامس جسدى ، ووجهى المبلل بعرق الانتظار مرتعش وخائف ، هل ألقت إليها ؟ أحادنها ؟ أسألها ؟ أزجرها ؟ أضربها وأهرب ؟ ترددت أكثر من مرة ، وخطوتها المنتظمة لا تزال ورائى ،

توقفتُ ؛ وقفت ، مشيتُ ؛ فمشيت ، قطعت السوق  
المسقوف .. كان الحارسان يشربان الشاي فى إحدى  
الزوايا .

خرجت من السوق ، انحرفت إلى « براحة  
الزهاميل » .

من هنا ... بدأ الخطو ورائى ، وحتى هنا .. كانت  
خطوتها منتظمة ... و ...

وقفتُ ، التفتُ ، فإذا برفيقتى كقطرة الماء التى شربتها  
الأرض .. بحثت عن الشق الذى ربما تكون قد نزلت منه إلى  
عالمها العجيب ، لكننى لم أر إلا التراب الرطب يتسم لى  
بهزه . أبى يصر على أنها جنية .. لكنها لم تؤذنى .. أو  
تخطفنى لأننا أكرمناها .. وأختى تصلى وتحمد الله .. بينما  
أختى تؤكد أن لها عينًا واحدة طولية . أما أنا فأتذكر ابتسامة  
السيد حين أسأله عن الجن فيردد :

« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن والإنس فقالوا إنا  
سمعنا قرآنًا عجيبًا » .

وفكرت ؛ لماذا لا تكون مجرد طفلة تاهت فى المساء ،  
وما أن وصلت المكان الذى ضاعت منه حتى عرفت بيتها ؟

حين استمع السيد إلى قصتي ابتسم كعادته وقال :  
- لا تسهر كثيرًا . . وعد إلى بيتك مع إخوتك .  
منذ ذلك اليوم . . قررت ألا أسهر عنده .





## آخر الليل

تهمس له من خلال دموعها :

- أنا حامل ...

يتتزع شفتيها الملتصقتين بأثر الدموع على زنده ويسألها  
بلهفة :

- ماذا قلت ؟

- أنا حامل .

وترتخي لهفته وتصدر عنه تنهيدة يأس يسنع على أثرها تأوه  
صدرها .

- أنت لا تصدقنى يا ناصر . ككل مرة . أليس كذلك ؟  
يصك أسنانه غيظًا :

- تزرعين الأمل فى نفسى دائمًا ثم يجيء الدم ليغرق هذا  
الأمل حتى العدم .

- ولكن الطبيب أكد لى اليوم هذا الأمر .  
ويهزأ :

- هه ! كثيرون هم الأطباء الفاشلون أمثال « أم فاضل » .

وتشد على ذراعه العارية وتتوسل :

- أرجوك صدقنى ... أرجوك .

ويسحب نفسه منها ويستدير إلى الناحية الأخرى ، وتظل ملتصقة به تراقب آثار « الجَلْد » القديم على ظهره الأسمر وبعض البثور الناعمة التى تتناثر بين خطوط الجلد ، كل شىء أمامها يصير كقطعة القماش . تمامًا كتلك التى كانت ترتديها فى ذلك اليوم .



البيوت القريبة ساكنة . المياه المختلطة بسائل الدم تستقر فى بركة فى وسط الشارع الضيق . ولا يزال « المدعاب <sup>(١)</sup> » ينز بقية دموعه لتعرف طريقها عبر أخدود الأرض إلى البركة الكبيرة .

الصمت يطبق على كل شىء فى الخارج إلا فى البيت ذى الدرجات الثلاث المهشمة . فى الداخل نساء يُنحن بصمت وامرأة تبكى فقيدتها بحرقه ومرارة .

---

(١) المدعاب : كلمة شعبية كويتية تعنى مصرف المياه من الحوش إلى الشارع .

أطفال شقر . وسمر ، وزعهم الله بين الأم والأب . رسم  
لون الصحراء على وجوه الصبيان وعلق لوحة جميلة من الجمال  
على وجوه الإناث .

بين اللحظة والأخرى يُفتح الباب الخشبي ذو الفتحتين ويطل  
وجه طفل يتأمل بركة الماء المختلط بتراب الشارع ودم الميت .  
وبعد أن تسيل دمعة جديدة يضرب الباب فى عنف وكأنه يريد أن  
يغلقه إلى الأبد أمام شبح الموت الذى اختطف فى هذا الصباح  
روح أبيه .

يفتح الباب . تخرج امرأة ملتفة بعباءتها السوداء المهترئة .  
تتبعها صبية مستديرة الوجه محمزة العينين . ثم يقفل الباب ثانية  
دون ضجة ، وتبقى اليد التى يطرق بها الباب تهتز اهتزازًا خفيفًا  
كأنها لسان شامت .

يبدأ الشارع يتحرك . الناس لا يعرفون غير هذا الشارع ممراً  
لهم . إنه الوحيد الذى يتقبل كل الأجناس . ضيق تملأه الحفر  
فى وسطه ويعلو من الجانبين . وفى الشتاء يصبح المرور فيه  
صعباً ، فإذا سار المرء فى وسطه فلا بد أن يخوض فى بركة  
الماء . وإذا سار على جوانبه فإن قدمه ستنزل به إلى البركة  
ثانية . وفى الصيف يبدو أكثر وداعة . لكنه فى ذلك النهار الحار

كان يستقبل المياه التي غسلوا بها الميت وكوّن بركة من الحزن  
تأبى أى قدم أن تدوسها .

النساء يخرجن ملتقات بعباءاتهن ، الأطفال كالأغنام  
يمسكون بذيل العباءات خشية أن تفر أمهاتهم ، الكل يتحرك .  
هن يدخلن يسبقهن نواجهن ، ويخرجن صامتات وقد أفرغن كل  
عذابهن وحسرتهن حول سرير المرأة المنكوبة . إنهن يكيين شيئاً  
آخر داخل نفوسهن وهى فرصة !

ولكنها تظل واقفة خلف باب بيتها المقابل لبيت الميت  
تراقب من فتحة كبيرة فى خشب الباب . فستانها أخضر بلون  
جدار بيت جارهم . به أقلام طولية مزروعة بينها شجيرات  
وردية وصفراء . جدائلها الفاحمة تنسدل على ظهرها  
بعفوية . عيناها ضيقتان بعض الشيء لكنهما لامعتان كضوء  
نجمة . جبينها المستدير يستقبل بعض شعيرات تعمدت أن  
تفصلها عن بقية شعرها وتقصها لتجمل وجهها . أنفها  
دقيق . وحين كانت طفلة كانت بنات الجيران يهزأن بمنظره  
ويشبهنه « بالهيب »<sup>(١)</sup> . شفتاها مكتزتان وغمازة عميقة

---

(١) الهيب : العتلة .

محفورة فى ذقنها تتسع كلما انفرجت الشفتان عن ضحكة كبيرة .

تطول وقفتها . تنتظر أن ينتهى النواح فى الداخل ويقفل أمام سرب المعزيات النائحات . وعندها يجىء ناصر وتلتقى العيون من خلف فتحة الباب ثم يدلف إلى الداخل صامتًا كعادته . يتوجه إلى غرفته فى السطح وينتظر حتى يجىء والدها . ثم ما عليها بعد ذلك إلا أن تحمل صينية الغداء على رأسها صاعدة بها الدرجات وهى تبسمل كلما رفعت قدمها لتستقبل الدرجة الأعلى . وتنتظر بعد ذلك حتى يشبع والدها ويشبع ناصر - ابن أخته اليتيم - من تناول الطعام لتحضر الإبريق و « اللجن »<sup>(١)</sup> . وتصب الماء ليغسلا أيديهما . بينما تتدلى جدائلها من الجانبين حتى لتكاد أن تصل إلى « اللجن » .

لكن انتظارها اليوم يطول . إنه يوم غير عادى . ناصر ووالدها شيعا مع الناس جثمان جارهم إلى مشواه . وهناك سيصلون عليه ثم ينتقلون إلى ديوانية « أبو مساعد » كبير الحى

---

(١) اللجن : الوعاء الذى يستقبل الماء عند غسل اليدين بواسطة الإبريق .

يستقبلون مُعزّي المناطق القريبة والبعيدة . وقد يتناولان طعامهما هناك . فما الداعي لأن تقف كل هذا الوقت ؟

أطبقت الباب . وأخذت تتمشى في « الحوش » تلملم بعض الأشياء الملقاة من لعب إخوتها وأبناء الجيران طيلة يوم كامل حاولوا خلاله صيد بعض الطيور لكنهم لم يفلحوا . وبقيت صراصيرهم الميتة بين خيوط الفخاخ غداء للنمل .

البيت صامت . حتى المطبخ رقدت أبخرته وأدخته . إخوتها في زيارة لبيت خالتها . أمها امرأة « وسواسية » لا تطيق أن يسمع أبناؤها خبر موت . فيفزعوا طوال الليل وقد يتبول أحدهم في فراشه . وهي الآن في بيت الميت إنها أقرب النساء إلى زوجته وواجبها اليوم كبير . عليها أن تستقبل المعزّيات وتشرح لهن بين دموعها وتأوهاتٍ كيف مات المسكين على غفلة من أهل بيته ، وما أن تنوح وتفلح في إثارة الأخريات حتى تصمت . وتأتي بالماء البارد وتغمس فيه أطراف أصابعها وتمسح بها على جباه النساء الباقيات .

وحدها في البيت ، يأكلها الملل ، عيناها لا تكادان تستقران على نقطة ما حتى تنتقلا بسرعة إلى نقطة أخرى تتصورها أكثر اتساعاً . لكنها تفاجأ بأنها أضيق من حفرة غمازتها . فتنهض

واقفة . تعود لتمشى فى الحوش الترابى ، عيناها تستقران على  
الصراصير الميتة فى فخاخ الصغار . والنمل يغطيها .  
ترتعش خوفاً :

- جارنا اليوم سيدفنونه . فهل سيأكله النمل والدود ؟  
تهز يدها غير مصدقة :

- كيف سيدخل النمل والدود إلى القبر بعد أن يهيلوا عليه  
التراب ؟

تنتبه إلى أنها قريبة من الدرج المؤدى إلى السطح حيث تتربع  
غرفة ناصر . فتجلس على أول درجة . تمد ساقها السمراوين .  
تفتح أصابع قدميها . تقفلهما ، تحتاج لمساحة أكبر .. ترتفع  
درجة .. تمد ساقها على الدرجة الأولى . ثم ترتفع درجة أخرى  
.. تنوكتا على كفيها وترتفع درجة ثالثة .. ورابعة .. وخامسة .  
يحمر باطنها كفيها من احتكاكهما بالدرج وتتوقف .. تلفت رأسها  
إلى الخلف .. خمس درجات باقيات .. لكن باب غرفة ناصر  
واضح أمامها الآن .. إنه مفتوح !

تكمل زحف الدرجات الخمس الباقيات .. تصل إلى  
الغرفة . تدفع بابها .. تدلف إليها .. تقترب من السرير  
الخشبى .. تتمدد عليه .. تحضن لحافه .. تشم داخله روائح

ناصر .. وتعبث يداها بأوراقه وكتبه .. تفتح خزانته . ليس فيها  
شئ مثير إلا ورقة مطوية حين فتحتها فوجئت بأنها تحتوى بعض  
خصلات شعرها اللامع .. تبسم فى غرور ثم تعود وتلف  
الشعيرات وتدفن الورقة تحت ملابس ناصر الداخلية !  
يلذ لها التمدد ثانية ، وترتاح . عيناها فى السقف ورموشها  
ذابلة .. كل شئ فيها يهدأ ... حتى لون الصحو الذى كان فى  
عينيها .



تجهش بالبكاء ...

ولا تفلح معها مراعاة ناصر . ولا تهتم لرجفة يده بل  
كل جسده . إنه مثلها خائف .. ونادم . لكنه لم يستطع أن  
يقاوم ! تسحب نفسها من بين يديه وتهرب من الغرفة .  
الدرجات القليلة التى صعدتها صارت شارعًا طويلًا كثير  
التواءات والحفر ، تحس به وكأنه يطاردها ويريد أن يخنق  
أنفاسها ويشل قدميها .

تنكفى على وجهها فوق حصيرة غرفتها .. وتبكي وهى  
لا تدري ما الذى يبكيها بالضبط .. الألم الذى تحس به . أم  
الخوف أم الحب !



جارهم مات .. دمه لا يزال يرقد فى بركة الماء فى وسط  
الشارع . وهى لا تدري ما الذى مات فيها !

\* \* \*

بعد شهرين من موت جارهم . كانت « وسمية » تنتظر لحظة  
رهية . إنه قدرها . اليوم يتحدد مصيرها .

« أم فاضل » تدخل البيت بوجه وحشى . أسنانها الصفراء  
بارزة . عيناها مغروستان داخل تجاعيد وجهها كبذرة منسية  
داخل عجينة فاسدة . شعرها المفروق فى الوسط أحمر يختلط  
بلون الحناء ينبئ عن بداية صلع سيحتاج لغطاء كلى . شفتها  
السفلى مدلاة تلمع دائماً ببصاق جديد يتدلى بدوره إلى أسفل فى  
خط عمودى لزج .

تدلف إلى الداخل .. أمها تسرع لتقفل الباب بالمزلاج .  
ترى الشرر يتطاير من عيني « أم فاضل » . ترتعش .. تعود  
خطوة إلى الوراء .. ثم خطوة .. وأم فاضل تقترب .. ماذا فى  
الوراء هذه المرة ؟ حين مات جارهم كانت تعود للوراء حتى  
وصلت إلى غرفة ناصر واليوم تعود .. وتعود حتى تحس  
بمقبض غرفة أمها يصفع عظمة ظهرها . و .. تدخل ..  
صرخة واحدة ...

ولم تعد تعى شيئًا . . . وكان آخر ما رأيته عيني « أم فاضل »  
وفيها أشكال وألوان من الغضب !

\*\*\*

يتصف الليل . . و « وسمية » لا تزال مبحلة في السقف  
وأنفاس إخوتها تصلها منتظمة دافئة ، وفي الغرفة الأخرى همس  
غريب ما تعودته قبل الليلة .

ترك فراشها البائس وتلتصق بالباب الذى يفصل غرفتها مع  
إخوتها عن غرفة والديها . فيصلها الهمس أكثر وضوحًا .  
صوت أمها يحاور الصمت الذى هو إجابة .

- ناصر لابد أن يتزوج وسمية .

- .....

- غدًا لابد أن تخبره بهذا .

- .....

- كتر الله خير أم فاضل التى خلصتنا من الفضيحة .

- .....

- هل تريد ابن أختك أن « يُعَنَس » البنية وهو مكتوف

اليدين ؟؟

يظل الصمت حائلًا ما بين صوت أمها ورد أبيها حتى تشعر

بالملل واليأس وقد تسرب إلى لهجة أمها الحزينة المفجوعة .  
فتجر نفسها ثانية إلى فراشها فى محاولة جديدة للتغلب على  
الأرق .

\* \* \*

فى الصباح رفض ناصر أن يرضخ لرغبة خاله بالمعروف  
وبالحسنى . لكنه ما أن أحس بلسع السوط الجلدى على ظهره  
حتى صرخ مستسلمًا !

- أمرك يا خالى .. أمرك .. بس إرحمنى !  
وبعد ثلاثة أيام فقط .. كان الأمر حقيقة واقعة وكانت  
« وسمية » تداوى فى الليلة الأولى جراح ظهر عريسها .

\* \* \*

يتحرك ناصر فى عصبية . وتتوجس وسمية خيفة منه .  
يلتفت إليها فجأة .. ويصرخ :

- هل أنت واثقة مما تقولين ؟  
ويستدرك :

- أقصد ما قاله لك الطبيب ؟  
وتفرح وسمية بتساؤله وتهتف بفرح :

- أجل .. والله يا ناصر ، هذه المرة لا أكذب عليك ...  
أنا حامل .

يعجنها بين يديه بشوق :

- أخيرًا .. بعد خمس سنوات من الانتظار والقلق  
والحرمان .

يمسح على شعرها بحنان . فتهدأ بين ذراعيه بينما تسمع  
شفتيه تهمسان في آخر الليل :

- لعنة الله عليك يا أم فاضل أينما كنت . حتى وإن كنت في  
قبرك .

وتنام ... قبل أن تظمنن إلى أنه لم يعد يتقلب في سريريه .

## لعبة فى الليل

فى النهار تتلون عيناها الطفلتان بلون الورد الأحمر كلما  
تلاقتا مع صورة الأم تحضن طفلها إلى صدرها . تلك اللوحة  
الجبارة بمعانيها التى لم تعرف معنى منها قط . تهزها اللوحة  
التى حفرتها أنامل أختها على الحائط المقابل ، ولونها بالفحم  
الأسود ، وملأتها حنانًا أموميًا هى لا تعرف كيف استطاعت  
أختها المحرومة أن تجسده فى اللوحة ، رغم أنها عانت الحرمان  
مثلها .

وفى الليل ... تسهد العينان الطفلتان ... تتلونان بلون  
الليل الأسود ... وجراح النهار الحمراء التى حمل بهما صفاء  
العين ... فينزف صامتًا حين يهبط الجناح الرمادى على  
الأرض ... فتغفو كل العيون ، إلا عينيها .

من أين يأتى النوم ؟؟ وهنا ... فى كل أوصالها تبدى  
الرعدة مثل شكة الدبوس الحارق ... والخوف لسان خشن  
يمتد إلى كل الجسد ... يب الله بالعرق وبالذبى .

- الآن تأتى ... بعد قليل ستأتى ... متى تأتى ؟؟

هكذا تحدث النفس نفسها ... وتتوقع خطوات زائرة  
الليل . فربما تزور المكان وهي مستيقظة فتراها العين وتصدق !  
كيف تأتى الزائرة ؟ وكيف تتحرك ؟ وما الذى تسرقه ؟  
- إنها تسرق الكحل من العين .

إذن : لماذا يبقى الكحل الأسود ملطخًا عيون تلك المرأة -  
زوجة أبى - لا تسرقه زائرة الليل ؟ عيناها تتقرحان ... تشكو  
السهر ... تتوسل أن ترتاح لكن الخوف يرفض التوسل ...  
يوقظ الانتباه ... فكيف تنام ؟ تتأوه :

- زوجة أبى تأمرنى ... تقول لى : نامى ... تهذبنى  
بأجنحة الخطر وتقول نامى ... فكيف أنام ؟ هل يستطيع من  
يتوقع الخطر أن ينام ؟ فلتأت الزائرة إذن ... ولتحميلنى إلى دنيا  
بعيدة مبهمة ... فمن يدرى ... لعل زوجة أبى تكذب . إنها  
تكذب على أبى كثيرًا ... فما الذى يمنعها من أن تكذب على ؟  
ونصير لى الزائرة بتلك الصورة ... وترعبنى وهي تقول أنها  
ستأكلنى ... لم لا تكون الزائرة حنونا وتحب الأطفال ..  
فتحميلنى إلى مكان أكثر أمانًا ، وأعمق حنًا ، وأطيب أرضًا ؟  
وتحمل معى وجه أختى الحانية ولوحة الأم التى تحمل طفلها  
محفورة لا تمحوها ضربات الزمن على الجدران ... إلى دنيا

لا أرى فيها وجه زوجة أبى الذى تصفنى قسوته طول النهار  
... ثم يهددنى فى الليل ... فانتظر ... وأتوقع ...  
وأساءل :

- متى ستأتى ؟ متى ستأتى ؟

\*\*\*

السما صافية لا تزال ... مثل كل ليلة ... والنجوم  
تترامى بدلال هنا ... وهناك ... عرائس تنتشر كحبّات الماس  
تتلاّأ ... تطمع كلها فى نظرة يرسلها القمر المارد الممتد فى  
العلياء ... رجلاً مغروراً ... يبهز بريقه كل النجمات ،  
فتمنى كل واحدة لو تكون تحت البريق . وعيناها تبرقان ...  
والخوف بداخلها رغم ما تتصوره عن الدنيا التى ستحملها إليها  
الزائرة .

تلين أطرافها قليلاً ... تحرك ساقها ... ترفع رأسها  
الصغير وتستدير ناحية « غرشة » الماء ، فقد فاجأها عطش تكره  
أن يفاجئها فى الليالى المقمرة حيث كل شيء يُرى ... وهى  
تخشى أن تلمحها الزائرة فتخطفها ... تثير حركتها صوتاً ...  
تتحرك أختها الراقدة بسلام قربها :

- لماذا تقومين ؟؟

- أريد قطرة ماء .. حلقى جاف .
- تشير أختها ناحية « الغرشة » :
- الماء هناك ... قومي واشربني .
- تهز أختها بلطف :
- قومي معي ... أنا خائفة .
- تنصب الأخت فى جلسة سريعة فى فراشها المبلل برطوبة الليل :
- تخافين؟؟ مم ؟
- تستغرب سؤال أختها :
- مم ... وتسألين مم وأنت تعرفين ؟
- يدو ضجر فى وجه أختها راسمة اللوحة :
- أعرف ماذا ؟
- قالت زوجة أبى إن ...
- بخفة تجد كف أختها تغلق فمها الجاف :
- هُسن ! لا ترددى هذا ... قلت لك ألف مرة لا تصدقنى
- هذا الكلام .
- فى محاولة للتبرير تبعد كف أختها وتؤكد :
- ولكن ! حمام جارنا وجدوه مقتولا .



- قلت لك إن القطة هى التى فعلت ذلك .

- و ...

وانبرى صوت أختها محتدًا .

- ستقولين وبركة الماء التى جفت ! فأقول لك إن الماء

تسرب فى الرمل ... وستقولين عن القدور التى لا نجدها !

فأؤكد لك أن زوجة أبى تعطيها لأهلها من أجل أن يحضر أبى

غيرها ... و ... ستقولين كثيرًا مما تسمعين .. وأقول لك إنه

هراء ... وأكاذيب .

- ولكن ! الأجنحة ! الصوت ! الظلال !

- فى الليل تكثر الخفافيش !

- خفافيش ! لكننى ...

تقفز أختها من الفراش بسرعة ومقاطعة :

- لكنك عطشى ... وسأحضر لك .. ستشربين وتنامين

ولن تفكرى بعد فى ما تقوله هذه المرأة .

تسحب الماء داخل فمها من طرف الفرشة ... تجرعه إلى

جوفها محدثة صوتًا أشبه بالركض على أرض أسمتية . ثم

تنطرح على وسادتها و ... عيناها نحو السماء الصافية ...

وكلها يرتعش بانتظار الزائرة .

- « أم السعف والليف » ساحرة .. تأتي في الليل ، عيونها  
إبر حمراء وفمها يتسع للآدمى .. فإن رأت طفلة لم تغف عيونها  
بعد ، فإنها تحملها إلى مكان بعيد ... وتأكلها ...  
تزم عينها حين تطرق أذنيها كلمات زوجة أبيها تلك ...  
تنكمش على نفسها كقطعة من الصوف وضعت بطريق الخطأ في  
ماء بارد .. ترتعش ... وتتساءل :

- فى الصيف فقط تأتي ... لماذا لا تأتي فى الشتاء حين  
أكون وأختى فى غرفتنا ؟

آه يا « أم السعف والليف » لو تعلمين كم سرقت منى الليالى  
... فلم أذق طعم رقادها ...

والليل المضى بقمرة ونجومه يأتى ويرحل ... وعيناها  
فتيلا شمعة لا تنطفئ .. ومتى انبلج الصباح كثغر طفلة تفرح  
رغم حزنها .. وتلمح صورة الأم المحفورة على الحائط تدمع  
وتقترب من الصورة ... تلامسها ببقايا الدموع وتتساءل :

- لماذا لا تكونين أمى ؟ وأختى فى صدرك كهذا الطفل ؟  
عصفورة تبحث فى غابة الشوك عن الأمان ؟ لماذا لا يكون الليل  
مثلك حائيا يحيطنى بذراعيه كما تفعلين لهذا الطفل ... فيحمنى  
من « أم السعف والليف » ؟ وحين تبعد أناملها عن اللوحة يكون

الفحم قد لوثها بلون الليل ... فتذكر الليل هامة :

- لماذا يأتي الليل؟؟

والليل يأتي كل ليلة ... قمره يأتي ... نجومه الساحرات  
المغريات كأنداء تتدلى تأتي .. وزوجة أبيها تنام مرتاحة قرب  
أبيها الذي لا يعلم بسر الساحرة . أو ربما رآها حين كان طفلاً  
وهو الآن لا يخشاها . عيناها فقط تسهران ... تترقبان ... ثم  
لا يلبث النهار أن يطلع ... فلا تدرى إن كان السهد قد سامرها  
أم أن إغفاءة حنوناً غمرتها دون أن تشعر بها .  
وتأتى الساحرة أخيراً .

النسمات تهب باردة رطبة ... تنذر بدخول الشتاء ...  
بعض الندى الخفيف يتقاطر .. وثمة ضباب يحجب ضوء  
القمر .. وعرائسه المدللات الطامعات بليلة عشق مع الرجل  
الأنيق .. والصمت يجثو على المكان ضيقاً ثقيلاً يعطى للأذن  
فرصة أكبر لالتقاط همسة النمل تحت الجدار ... وهى تكره  
الصمت !

عيناها تتحركان كعيني ذبابة ، ترصد كل الأنحاء ... هنا  
فراش أختها .. وعن يمينها الفراغ ... وفى زاوية السطح  
الشرقية « كرسى خشبى » جدلت أخشابه الرفيعة بشكل مربعات

متساوية طولية .. وعرضية .. فيه فتحتان من أعلى .. تنتصب  
فى إحداهما غرشة الماء ... وفى الثانية « برمة <sup>(١)</sup> » أكبر ...  
فى طرف الكرسى ربط حبل تدلى حاملاً كأساً معدنية يشربون بها  
الماء .. تحت الكرسى يرتاح سطلان يستقبلان الماء النازف من  
البرمة والغرشة وهو فى الصباح ماء للدواجن رغم نقائه وصفائه  
من التراب الأحمر . فى الناحية الأخرى علبه صفيح مبعوجة هى  
« بيت الراحة » الذى تستعمله هى وأختها إن فاجأتهما الحاجة !  
وفى الصباح تحمله أختها لتصبه عند « مدعاب » البيت فيختلط  
بتراب الشارع .

وهناك باب صغير يفصل مكانهما فى السطح عن مكان  
والدهما وزوجته . تغلقه المرأة عادة قبل أن تنام . ويفتحه والدها  
فى الصباح الباكر منسللاً إلى الدرج المؤدى إلى حوش البيت .  
فى تلك الليلة لا يبيت أبوها فى البيت . فعنده نوبة حراسة  
فى السوق الكبير .. وزوجة أبيها تلح عليها أن تنام .. لكنها  
لا تنام ... تذكرها بالساحرة ... فلا تنام ... حتى عندما  
دخلت المرأة سطحها وأغلقت الباب .. انتهت عيناها إلى أن

---

(١) برمة الماء : آنية فخارية لتبريد الماء .

الباب لم يغلق تمامًا مثل كل ليلة . . . بل كان مواربًا ينعكس ظل شقه الطويل على أرض السطح .

السكون يطبق على المكان . فلا يثير نفسًا لشيء وعيناها تنتقلان في اتجاهات السطح . . . وتطل إلى الدرج الذى يبدو معتمًا إلا إذا تحرك الضباب وانزاح عن وجه القمر . . فيبدو وكأنه مغارة عميقة . من هناك . . . ينطلق الصوت : خشخشة أجنحة ولهائًا متعبًا . ثم رأس يطل !!! يا إلهى . . . لقد جاءت الساحرة أخيرًا . . .

وانكمشت . . . صارت قطعة من الإسفنج تبللت ثم أهملت فجفت وخمد فيها كل شيء إلا عينيها المصرتين على رؤية الساحرة !

الجسد القادم من مغارة الدرج يرتفع . . . يستطيل ، يتصبب أخيرًا كاملاً ثم يمشى بحذر شديد . . . لا يؤكد قوة حدثتها عنها زوجة أبيها . . .

تأمل أكثر . . الرأس كراسها . . الجسد جسد لا يختلف عن جسد والدها . . إلا أنه أكثر شبابًا !! الذرعان فقط مختلفتان . . هما جناحان ! لكن حفيفهما كلما خطت الأقدام خطوة لا يدل على أنهما جناحا طائر . . . فهى تعرف حفيف الأجنحة حين يتطاير

حمام الجيران .. أو حين يحلق « أبو حقب »<sup>(١)</sup> « مطارداً الحمام .  
مَمّ تراها مصنوعة أجنحة هذا الساحر ؟؟ تتسع حدقة العين  
... هى تريد أن تعرف ... أن تتأكد أن الذى تراه حقيقة ...  
ها هما الجناحان ... مستطيلات من « السعف » تلتصق  
بعشوائية على الذراعين . الجسد يمشى ، يدنو من الباب  
الموارب الذى يفصل ما بين سطحهما و سطح أبيها وزوجته ...  
اليد الطويلة تمتد ... تدفع الباب الموارب ... يدخل  
بخفة .

- يا إلهى ... الساحر سبرى زوجة أبى وحيدة وسيسرقها .  
لحظة أرادت أن تحس بالفرح ، لأن الساحر سيسرق  
زوجة أبيها ... لكن حنائاً غريباً يثار داخل صدرها ...  
فيقتل الشعور بالفرح ... ويتمنى ألا يصيب المرأة مكروه  
... تحرك ساقها بشجاعة ... وقبل أن تغادر الفراش  
تنصت لأنفاس أختها تتأكد أنها مستغرقة فى نوم عميق ...  
وتنفلت إلى الباب الفاصل ...

تنصت !

---

(١) أبو حقب : النسر .

لا تسمع شيئاً .. لا صوت ينبى بصرير أسنان تمزق اللحم  
... ولا آهة توجع .. ولا حركة مقاومة ... تدفع الباب  
بحذر ! موقّع عيناها على أجنحة السعف ملقاة على الأرض .  
يدور شيء فى رأسها وهى تشاهد الساحر يشارك زوجة أبيها  
الفراش ... طنين هادر ... وسؤال يتجرأ ويلح :  
- ترى ! ما هذه اللعبة الليلية التى يمارسها الساحر مع زوجة  
أبيها !





## الإشاعة

فى تلك الليلة فقط . . . تغير كل شىء .  
عصف عاصف الخوف . . فمزق خيوط الألفة الرخية ،  
وانبلجت أسنان الرعب تهرس رغبتنا كلما فكرنا بجمع الشمل فى  
مكاننا المعهود الذى شهد نماء الحب وصفاء الأمسيات .

\* \* \*

كنا نعود ملتحمين . . . نغنى بأصواتنا الجماعية التى يرقص  
لها ضوء المساء . . وتتطاير حولها النسمات حاملة الصدى  
الأليف . . . لكن « شهابو » برز فجأة بدشداشته القصيرة الممزقة  
دائمًا ، فقطع على أقدامنا الحافية سيرها الوئيد . حمله كما يفعل  
دائمًا . . ولعابه اللزج ينحدر إلى صدره الذى تعرى . . .  
وصرخ :

- إياكم أن تأثوا هنا ثانية .

ماذا ؟ انتقلت نظرانا . . . والتقت سريعًا . . وقبل أن ينطق

أحدنا باعتراض صاح بصوت خائف متهدج :

- هناك . . . فى تلك « الربعة » يسكن جنى !!

تصادمت نظراتنا السريعة .. نظرات شك ، لكنه أردف  
حين شعر بشكوكنا :

- لقد رأيته بعينى .. وحين أطلقت عليه كلبى تجمد الكلب  
هناك ... انظروا ...

والتفتنا ... إلى الربعة التى شهدت كل شىء ... فإذا  
الكلب ملقى ... وقد تدلى لسانه منحسراً بين فكين مبللين .  
دفعنا به ... ونما الشوك فجأة تحت الأقدام العارية  
الطرية . فأطلقنا السيقان ... أجنحة فراشية تبحث عن الفراغ  
لتطير ... حتى إذا وجدت الزهرة المنتفضة على غصنها هجعت  
بارتياح ... وكانت بيوتنا الزهرة التى قصدناها لا نلوى على  
شىء .



وهجرنا « الحوطة » .

هجرنا الأحياء الضيقة بعد أن كنا كل ليل نعبر طرفها  
الأليفة .. ونتمشى بين البيوت الطينية الواطئة .. نشتم روائح  
الأبقار والأغنام المربوطة فى أحواشها وتحت « عرشانها »  
ونستمع قوقأة الدجاج والأفراخ فى دهاليزها ذات الأبواب  
الخشبية الشامخة بأصالتها ... الخالية من الأقفال والحديد

... إلا من « مقحام خشبي » تمتد في آخر الليل يد الرجال  
لتغلقه ... وتحمد الله .

وكانت عيوننا تتابع الهررة المتحابة على الأسوار الندية التي  
تلوح في شقوقها بقايا الشعر الإنساني أو كسر الخبز الجاف التي  
امتدت أيدي المارة إليه لترفع من شأنهم السماء .

نمشى ... واعتياد أليف صادق يشدنا كالحزمة القوية ...  
حتى نصل إلى مقر لهونا ... وأنسنا ... إلى الحوطة التي  
تشهد كل ليلة أنواع لعبنا ... وبراءتنا فكنا نتقاذف  
بالحصى ... ونغطس في ماء المطر المتجمع في الحفر ..  
ونذك الأرض برجل واحدة ... نتسابق ... والذي يصل إلى  
الربعة يفوز بالجائزة ...

- ماذا نلعب الليلة ؟

وقبل أن نتفق يكون « شهابو » قد مرّ بصراخه وعبثه وأكوام  
العلب الفارغة التي يربطها بالخيوط ويحلّي بها رقبتة ..  
وساقيه .. ورأسه فيصرخ :

- لاعبوني معكم .. « أنا المجنون .. آكلكم » .

لكن أصواتنا الراضية تسد في وجهه باب المشاركة ونلحقه

بالعصى ... والحصى .. فيهرب فارًا بينما نعود  
متضاحكين ... متسائلين :

- ماذا نلعب الليلة؟؟

- اللقصة .

- اللبيدة .

لا .. نلعب « عماكور طاح فى التنور » .

وأخيرًا يقترح صوت :

- نلعب « إحدية أبدية <sup>(١)</sup> » .

فوافق .. نتحلق بدائرة .. فتمتد أكف البنات المحنّة جنبًا  
إلى جنب مع أكف الصبيان التى شققها البحث عن « القبانى <sup>(٢)</sup> »  
تحت « سيسان <sup>(٣)</sup> » البيوت والشوارع .

نرص الأكف وننحنى ، حتى تكاد رؤوسنا المتقاربة  
تصطدم . وتدفع « قماشة » بسبابتها الطويلة داخل فمها ..  
تخوضها فيه تقفز بها من كف إلى أخرى بحركة دائرية وهى تغنى

---

(١) اللقصة ... اللبيدة ... عماكور طاح فى التنور ... إحدية

أبدية : كلها ألعاب شعبية كويتية .

(٢) القبانى : دود الأرض .

(٣) السيسان : أسس البيت تحت الجدران .

بصوتها المبحوح بينما تغنى شفاهنا بصمت كلمات الأغنية :  
 « إحدية أبدية .. ناصردية .. حط الكور على الزبور ..  
 يا قناص .. قوم اقنص .. شبط خيلك شبطها .. باب الحلة  
 وباب الشام .. مريت على غرابين ... يأكلون سحتين . قلت  
 يا عمى يا بو حسين .. كم يوم على رمضان ... سبعة أيام  
 والتمام .. وحاديها ... وياديها .. واضرب الخيل معاديها ..  
 خرجة برجة طاحت بالماى قالت تش .  
 وتنتهى الأغنية .. وتكون السبابة قد استقرت مع نهايتها  
 على آخر كف .. وتبدأ المساومة :  
 - « تريد قرصة الحية ... أو العقرب ؟ » .  
 والعقارب فى الليالى الحارة لا تتركنا .. عدو يترصد أقدامنا  
 الحافية ... ويفرغ سمه الأخضر فيها .. ويفرق الجمع  
 الأليف .  
 و « شهابو » عقرب آخر . يشير الفسجر والرعب أحياناً عندما  
 يختبئ فى الزوايا ... أو الأحياء المظلمة ويصرخ فى وجوهنا  
 فجأة .. ويسعد حين يهز الأمان المستقر فى نفوسنا .. وكان  
 اهتزازاً مارقاً كالبرق لا يترك أثره ... ولا يحرمنا من اللقيا رغم  
 إصراره على تكرار فعله .

أما فى تلك الليلة ، فقد تغير كل شىء . . . وحبلت النفوس  
الصغيرة برعبها حملاً ثقيلاً .

سكننا الخوف . . تفشى فى صفوفنا كما يتفشى السل فى  
الرثة السليمة . . فمرضت ليالينا الهادرة التى لم تعدد السكون  
الرتيب . . . وعشنا فى انكسارنا نجتر الذكرى . . ونختصر  
اللقيا على النهار . . حتى يذبل قرص الشمس . . . ويفوح  
لونه الوردى معلناً بداية ظلام الأمسيات . . نتوابع . . كل  
إلى بيته . . . نسكن ونفكر . . « بالجنى » الذى سكن  
« حوطتنا » فكدر ليالينا وانتزع أماننا كما تنتزع جذور السدره  
من أرضها . وتساءلت عيون الأهل وألستهم . . وخشيت  
فرقة الصغار . . ربما هو الشجار الذى سرعان ما يذوب فى  
إناء طفولتهم . . . لكنه قد يمتد فيصل الكبار الذين قضوا  
سنواتهم أهلاً . . . وأحباء . . يخشون الفرقة والكدر لكننا  
لم نجرؤ ، وكأن « شهابو » قد زرع موسى حادة فى حلوقنا  
نخشى لو حاولنا البوح أن نذبح أعناقنا . . ولكن : إلى  
متى ؟ والشوق لدفع الليالى وأنسها ينغل كالنمل الجائع فى  
صدورنا .

- إلى متى ؟

نطقها مسعود ...  
وانفجرت الأسارير .. تلك هي المرة الأولى التي يصدر  
فيها السؤال إلى الجماعة ...  
إذن .. لا بد من الحوار الحازم ... والوصول إلى  
قرار ...

- لماذا صدقنا شهابو؟؟
- سأل خالد .. وأجابت قماشة :
- ربما كان يكذب ...
- وانبرى محمد ... صديقنا السمين ... وتلته أصوات :
- إنه يكرهنا ...
- لأننا لا نلعبه معنا ..
- لأننا نسخر منه ...
- وأطلق فهد عبارته :
- ما رأيكم؟؟
- وبشغف الغريق إلى قشة صحننا بصوت واحد :
- رأينا في ماذا ؟
- قال والإصرار مرتسم على أنحاء الوجه الأسمر :
- نجرب الربعة !!

ودفعنا الهلع الذى احتكرنا دفعة واحدة . . . فهبنا واقفين  
تتداخل أصواتنا المرتجفة :

- لا . . نخاف . . . الجنى . . الموت . . لا . .

لكنه رفع ذراعيه مهدئاً فبانت قرحته الجافة :

- أنا مستعد أن أجرب . . فقط ساعدونى . . هل

توافقون؟؟

جالت عيناه تبحثان عن إجابة . . لكننا جميعاً كنا ملجمين  
فكرر قوله وأكد أنه مستعد لهذه المغامرة من أجل أن تعود ليالينا  
مشرقة فوعدناه . . .

وعدناه أن نأتى فى الليل إلى الحوطة . . لكننا أخلفنا . كان  
الخوف واحداً يترصد بنا . . لكنه اليوم أصبح توأماً بالخوف  
على صديقنا فهد من الموت .

ورغم سنواته القليلة ، كان فهد شجاعاً بإصراره وعناده . .  
وحلمه أن تعود الليالى الفازة إلى مأواها . أخذ يتوسل . . لكن  
التوسل إلينا كقطرة الماء التى تصب فى يوم قائف على  
الرمل . . .

وبكى مرتين . . لكنه لم يلق شقيقاً ولا نصيراً . . بل  
تضاحكنا نهزاً من دموع الرجال !



وأخيرًا هذدنا بالانفصال عن الجماعة . . . فخشيت القلوب  
انتزاع شريان من شرايينها .  
واقفنا .



اصطففنا عند باب الحوطة . . أجسادنا المتلاصقة لحمًا  
وعظمًا . . يُعلن صوت ارتجافها مدى الهلع الساكن فى كل  
شعرة .

و . . . بدأ فهد يبتعد . . . وعيوننا تشيعه دمة مبتهلة . .  
حتى اقترب من الربعة . . . وكانت أرواحنا قد وصلت حلوقنا .  
وصل . . فاستدار نحونا . . وصار ظهره ذو العظام البارزة  
ناحية الربعة .

وقف شجاعًا . . يرفع كلتا ذراعيه إلى جانبيه وبدأ يعود إلى  
الوراء . . . إلى الورا . . إلى الور . . إلى الـ . . .  
ودوت الصرخة . . . !!

وأحدث الدوى انفجاره . . . فطارت السيقان تقلع التراب  
من مكانه . . غير مبالية بالأحجار والمسامير وقطع الزجاج  
المتناثرة .

وتفتحت أبواب البيوت بعنف . . . وانصرفت باحتجاج :

ولم تهدأ الأجساد ... ولا العيون ... عرفت الكرى بانتظار الصباح .

\*\*\*

صاحت الديكة ! فتوقعنا صرخة تشق عباب الصمت  
الحرون الذى أزمنا ... أين الصرخة التى ستعلن نبأ موت  
رفيقنا؟!

ومتى تسحب الأمهات عباءتهن السوداء التى غزاها  
الاخضرار وينهمرن على بيت أم فهد انهمار السيل نائحات  
مواسيات؟؟ ومتى تخف أقدام الرجال بنعالها النجدية لتحلق  
حول تخت الغسول يشارك بعضها « الغسال » فى لف الكفن  
وتعطير الجسد الصغير بدهن العود وماء الورد؟!

\*\*\*

الصمت ... ولا شيء سواه ...  
بدأ تناغم الأصوات التدريجى .. صوت الأحياء تتنفس بعد  
أن أعلنت أصوات الديكة عن انبلاج الصبح ... لا شيء يثار ،  
ولا حزن يعلن ...

واجتمعنا ... تحدونا رغبة ملحاح لمعرفة مصير رفيقنا

فهد .. تهامسنا ... وقررنا أن نذهب إلى بيت فهد ... نسأل عنه  
.. فإن وجدناه اطمأنت النفوس ... وإن لم نجده سنصارح أمه  
بالخير المشثوم ... ولن ننسى أن نعلن خبر « جنى الربعة » .



ما أن فتحت أم فهد الباب .. وانشق انشقاقة نصفية حتى  
لمحنا فهدًا مستقلقيًا في حوش البيت على فراشه .. وقدمه  
اليسرى مربوطة بخرقه حمراء منقطة ...

دلفنا ... وحين تأكد من اكتمال عددنا صاح في وجوهنا :  
- أيها الجبناء .. لقد هربتم في اللحظة التي كنت فيها  
بحاجة لمساعدتكم ...

تلعنمنا ... وتقدمنا نحوه مسرعين نتساءل :

- هل خرج الجنى ؟

- هل لمحته ؟؟

- هل ... وانزلت عيوننا إلى قدمه المربوطة :

- هل قطع قدمك ؟

- هل ... وهل ...

الشيء الكبير من السؤال .. وأم فهد ترقب المشهد باسمه

آمنة ...

- اجلسوا يا رفاق ...

تهاوينا على فراشه الذى بالله ندى الصباح ..

ابتسم لنا ...

- اسمعوا ... لقد كانت إشاعة أطلقها شهابو المجنون

... وتعرفون بالطبع قصده ...

ليس هناك من جئى .. ولا من يحزنون .. لقد كانت

صرختى صرخة ألم واستنجاد ... زجاجة مكسورة انغrust فى

قاع قدمى .. وكنت بحاجة لكم .. لكنكم هربتم ...

قاطعته مسباح بتوسل من يطلب العفو :

- ظننا ال ...

- أدرى ... أدرى ...

وضحك حتى استلقى فبان فى ساقه قرحة أخرى .

## موت اللبلاية

هذيان المطر يتواصل ، الغيوم عباءات يشق سوادها التماع  
البرق . الريح مهتاجة تجتث مناجلها رءوس الأعشاب ، وتطأيرُ  
ريش العصافير اللابدة تحت مظلات النوافذ .

هي خلف الزجاج المزخرف بخرائط القطرات ، تلصق  
وجهها على سطحه البارد ، عيناها مركزتان على اللبلاية الناتئة  
من قلب الأرض . متسلقة خيطها إلى حافة السطح ، تأملتها ،  
تفرّست بأوراقها الخضراء النامية . وتلك الصغيرة المندسة بين  
الفروع كأطفال يندسون في حضن الأم ، يحتمون من البرد ومن  
أحلامهم المرعبة . الريح تحاصرها ، تتفض كائى يطاردها  
مزاج رجل مجنون ، تحاذى الزجاج ، تصفقه ، كمن تود اقتحام  
الغرفة بحثًا عن الدفء والأمان . أثارت اللبلاية المتأرجحة  
شفقتها ، همست بسرّها : « لا حماية لك داخل غرفتى . لو  
كنتِ مكانى لعرفت كيف يكون للغرف المغلقة صقيعها  
الحارق » .

تذكرته ، نغل الحنين بأعماقها ، تمته يخرق عويل الريح .

يتصب أمامها ، يثير بإعصاره شوقها القديم للركض تحت  
المطر ، تتدثر بذراعيه الدافئتين ويتسربان لذلك المقهى . يتحد  
بخار قهوتها بوشوشة الشوق المنسكبة فى الفناجين وصوت  
فيروز يحتفل " برجوع الشتوية " .

هذا نهار لا يصلح إلا للحب ، لكن واقعها المر يصفعها ،  
يبعث أحلامها شظايا حادة ، شعرت وكأن روحها تذوب كنجمة .  
تحسنت جسدها المتعب ، عانقت صدرها بذراعين  
مرتجفتين ، خصرها ، أردافها .. ودت لو تسليخ جلدتها  
الميت ، تغتال وجعها وتنفلت عارية تحت سماء تنذر بالوعود .  
تأوهت ، تعرف أنها لن تخرج لتقطف وعدًا واحدًا . بل مرغمة  
ستواجه غضب الطبيعة . تلقم أمنياتها لشوارع مكتظة بجنون  
السيارات وأنياب الموت .

أسدلت الستارة بوجه اللبابة . تأهبت للخروج .  
دست كفيها داخل القفازين ، تدثرت بمعطف المطر ،  
اندفعت إلى السيارة ، أدارت المحرك . كادت تنفلت بها .  
دغدغها صوته :

- السيارة كالمرأة ، لا تطاوع قبل أن تمتلئ بالدفء  
والحنان .

انتظرت ، عناقيد المطر تتساقط وتنفلش على الزجاج الذى  
استراحت عليه أوراق الشجر الصغيرة . حركت ماسحتى الزجاج  
الأمامى فانزلقت الأوراق وكأنها بعض أمانيتها المبللة باليأس .  
زمجر الغضب بداخلها ، تسرب حتى قدمها ، داست بعنف  
فانطلقت السيارة إلى شوارع تنفرج وتضيّق بفعل قناصة الحفر  
وآلياتهم . توقفت عند مكتب البريد ، زجت الرسائل فى فم  
الصندوق الأصفر سمعت خشخشة ارتطامها بالرسائل الأخرى ،  
دخلت المبنى ، اتجهت لصندوقها الخاص ، هطلت الرسائل  
منه والطرود . خفق قلبها ، حضنتها ، دثرتها تحت البالطو وهى  
تقطع المسافة إلى سيارتها . حين استقرت خلف المقود فردت  
الرسائل ، قرأت الأسماء ، بحثت عن رسالته ، شهقت بفرح ،  
همت أن تعود إلى البيت تستدفئ بحروفه ، لكن صوت أنبوبة  
الغاز الفارغة التى تتدحرج فى الصندوق قتلت فرحتها .

وقفت أمام طوابير الأنابيب المصفوفة مثل عساكر ، داهمها  
خاطر مريع ماذا لو سقطت شظية الآن وفجرتها ؟ استعجلت  
العامل ؛ ابتسم وهو يجعر بصوته :

- أنبوبة نظيفة كطلبك دائماً .

فرت من ابتسامته ، انتشرت غيمة سوداء ، توقفت عند

محل الكهرباء ، سلّمته خلّاط العصير المعطل وتسلمت منه  
المكواة التى أصلحها . اشترت دزينات من اللمبات ذات المائة  
شمعة والستين شمعة .

واصلت من « الدعية » إلى شارع القاهرة ثم اتخذت يمينها  
إلى شارع بيروت . دوى الرعد بوحشية ، تقاذفت إليها صور  
الحرب البشعة ، ضاعفت سرعتها ، ألجمت السيارة عند باب  
المطحنة ، أطلقت بوق السيارة ، أقبل العامل ، فتح الباب  
الخلفى ، وضع الكيس :

- كما تحبين نصف أشقر ، نصف محروق ، هيل كثير .  
انتشر عطر البن ، تمادى يوقظ حنينها لدرجة الغليان ، تذكرته  
ذلك النهار وهى تحديق بفنجانه تداعبه بقراءة خطه ، استحثها :  
- ماذا ترين ؟

- آدم يغص بتفاحة الجنة وينحدر مهزومًا إلى الأرض .  
تذكر كيف تحداها :

- لماذا لا يكون متصّرًا رغم الغصة وتكون الأرض جنته ؟  
تافت لجنائن صدره . بعثر المطر نشيده فوق سقف  
السيارة . مستعود إلى البيت ، تفتح رسالته ، تذوق طعم شوقه ،  
تستحلب نشوة افتقدتها منذ غادرها آخر مرة . التفتت تطمئن



على الرسالة . صفعتها ورقة الطلبات التى لم تنته بعد . بقى الكثير .

اتجهت إلى الجمعية التعاونية ، تجولت بين الرفوف المزدحمة ، قابلت وجوها ، تعثرت بصناديق كرتونية مفرغة من البضائع للتو . أزحمت العربى بالأغراض ، فى طريقها إلى الكاشير وقعت عيناها على فترينة الألعاب ، خفق قلبها لمنظر الدمية ذات القبعة الحمراء ، تأملتها ، تحسرت ، يوم كانت طفلة حلمت بدمية كهذه لكن الحلم لم يتحقق .

اشتريت الدمية ، دفعت الحساب ، اتجهت لباب الخروج ، فوجئت بالسماء تسكب دلاءها بعصية . الريح قاسية ، رصيف الجمعية مخنوق بالأجساد التى تتقى السيل . الوقت ضيق ، لديها الكثير ، استعر الحققد فضفاضًا بداخلها . هذا يوم لا يصلح إلا للحب .

فضت زحام الناس ، هرولت تحت المطر والعامل يتبعها . رص الحاجيات ، انتظر بوقاحة ، نقدته البقشيش ، دلفت إلى السيارة وقد تبلل شعرها وتناثرت القطرات فوق وجهها كالدموع . ألقت نظرة على الرسائل ، عانقت خط يده . انفجرت بالبكاء .

واصلت السير إلى « مجمع النقرة الشمالي » ، إلحاح ابتها  
يزقزق حزينًا داخل أذنيها :

- بعد غد حصّة الألعاب ... أريد ..

تجولت ، اختارت حذاء الرياضة ، فانيلا بيضاء ، شورت  
أخضر ، شريطة صفراء ، إشارات مخملية ، مضارب تنس .  
ثقلت الأكياس ، مرت تصافح الواجهات بسرعة . توقفت أمام  
قميص النوم البنفسجي ، ارتعشت ، تذكرت :

- هذا اللون يليق بك . ستبدين به كزهرة البنفسج .

يومها تدللت عليه :

- وأضع روجًا بنفسيًا وأشكل بشعري وردة بنفسجية  
فتكتب لي قصيدة !

صوته يلح : اشترى القميص .

طوته البائعة ، حضنته إلى صدرها ، خرجت تحلم به يأتي  
في يوم ماطر ويتمرغ فوق البنفسج . هتفت باسمه عشرات  
المرات وهي تقطع المسافة إلى سيارتها وتسكب جسدها غيمة  
باردة على المقعد . تلمست رسالته ، هاجمها الغضب ، ودت  
لو تنسف حياتها ، تبصق كل ظروفها ، تختار قلبها فقط تعيش به  
حرة ، تسافر ديار الحب مثل فراشة .

حطت عند مخبز « التنور » . شقت الرائحة عباب  
صدرها . كانت السماء قد فرغت إلا من رذاذ حنون  
يتساقط . تسلمت الأقراص ساخنة مصحوبة بابتسامة الخباز  
ولهجته المتعثرة :

- « محمّش زين ، سمس وايد » .

عرجت على المكتبة . اختارت مجلاتها المفضلة ، اشترت  
كشاكيل مدرسية لابتها ، أقلام رصاص ، ألوان شينية ودفتر  
رسائل ملون !

كان بخار الخبز الساخن قد شكل غلالات ضبابية فوق  
الزجاج ، عبقت السيارة برائحته الشهية . ذات مرة قالت له :  
رائحة جسدك تشبه رائحة الخبز . ضحك بأعلى صوته وقال :  
أخاف أن تأكليني .

لو جاء الآن لن تتوانى « تفرمسه » انتقامًا من غيابه . احتاج  
شوقها ، لم تعد تواصل إكمال المهمات . بقي اللحم ،  
الخضار ، ومصبغة الثياب .

اندفعت إلى البيت ، أفرغت الأغراض ، ركضت إلى  
غرفتها تعانق رسالته ، فضت قماش الستارة ، فتحت النافذة ،  
هرولت الريح إليها تطاير أوراقها ومفارش الطاولة الرقيقة .

بحث عن اللبابة ، دفعت نظرتها إلى الأسفل ، رأتها منكومة  
كجثة . أحست الريح تفتح ثوبًا بكل عظامها فتكسر بداخلها  
الأغصان . انتفضت ، نهأت إلى الأرض وأجهشت .

١٩٩٥

## حلم غير قابل للكسر

ظلت رغبتى أن أدعوه ذات ليلة إلى جولة داخل السيارة .  
نهيم فى شوارع المدينة ، نحتسى قهوة طازجة . نلتهم دخان  
سجائرتنا المختلفة . نستمع للأغنيات القديمة التى تعجبنا .  
نتسكع فى أزقة المواضع . نفتح نوافذ أحزاننا وأفراحنا ،  
نتبادلها ونستريح .

رغبة محمومة لا تجرؤ أن تصل إليه ، كأشياء أخرى كثيرة  
تموج بخاطرى كلما التفتيه . بضع شوق يسكننى ، يتنامى حين  
المحه ممتدًا بقامته أمامى ، أو جالسًا يحتسى قهوته ساهمًا فى  
خيالاته . . وكلمات تكاد حين يجالسنى للحظة ، أن تشق باب  
قلبى وتفر إليه كعصافير ممثلة تهمس الشبح فى أذنيه . تلتصق  
بقلبه وتعترف بأنه أصبح أثيرًا لدى ، وأنه يستوطننى منذ شهور .  
ويحتكر ساعات ليلى ، أحلم به مُحطمة بأحلامى كل الحواجز  
التى تفصلنى عنه حين التفتيه .

لم أجرؤ أبدًا أن أدعوه ؛ خشية أن يصدمنى رفضه فيموت  
بداخلى أمل بدأ ينبت كعشب أخضر فى مساحات قلبى الجافة . لم

يخطر ببالي أبداً ، أن الصدفة تكون قوساً يزف ألوانه المفرحة إلى  
فى تلك الليلة التى بادرنى فيها بذوق شديد أن يوصلنى إلى البيت .  
لم أصدق حتى اللحظة التى أغلق فيها الباب بعد أن زفقتُ  
نفسى إلى مقعد سيارته المجاور ، وحتى اللحظة التى استراح  
فيها خلف المقود . رحب بوجودى . صوته لا يخفى شعوراً  
بالارتياح . وأنا !! تنتفض عروقى . تكاد تنزف دمي أمامه .  
أشعر بجوع مفاجئ وكأن الفرح قد استنزف كل ما أكلته خلال  
شهور .

هو بقربى ؟ أو أنا التى بقربه ؟ لا يهم . مادامت الحياة أخيراً  
تهدينى بعض حبوبها الغنية .

الفرح ينبش نفسه ويزهر حتى وجتتى فتدفان . حتى عيني  
فتتدفق منهما ضحكات أطفال ترفعهم أراجيح الأعياد وتنزلق .  
بحنان يضغط على دواصة البنزين ويمضى . وأنا ! أثرثر  
باعتذاراتى السخيفة أننى أزعجه . فيرجونى بلطف ألا أتصور  
ذلك . وأنه سعيد حقاً أن أكون بجانبه .

تغمرنى رعشة ولذة . أتمنى لو تطول الطريق . تنعدم  
النهايات والحدود تترك لى زمناً أحقق فيه رغبة أغذيها منذ فترة  
بالأمل خشية أن تكسل أو تصدا .

هو صامت . الراديو أيضًا صامت . توقعته حال جلوسه يمد  
أصابعه يدس شريطًا ينثر رحيقًا « فيروزيا » .. قد تسطع أغنية  
تعبر كلماته ولو قليلًا عن مشاعري القوية التي لا أدرى بالضبط  
متى فاضت أمطارها وتكاد تنذر بطوفان .

صامت !

يفتني الصمت . أطلق بضع كلمات يجيب عنها باقتضاب .  
أود لو تغلبني شجاعتي فأطلب منه أن ينسى طريق البيت ويظل  
تائها معي في الشوارع . نبحت عن شارع قديم تفوح منه عطور  
زمن ودعته ومازال لا يودعني . لكنه يمضي في الشوارع التي  
تخترق أضواؤها العتمة ، فتضيء داخل السيارة ، وقلبي  
يضيء . لم يكن يهمني أن أتأمل أى شيء يتبعثر حولي ، ربما  
كتب ؟ أو أفكار غير مكتملة الولادة ؟ أو ألعاب أطفال منسية ..  
وربما إشارب امرأة فيه رائحة عنقها أو صدرها . حتى خارج  
السيارة ! لم يهمني أن أراقب أى شيء ، لا الأشجار التي تنام  
واقفة يرعشها البرد . ولا السماء التي يتربع فيها قمر يختال بين  
عشيقاته النجوم . ولا البحر الذي تتكئ أمواجه على صدر  
الرمال . شيء واحد فقط كنت أدفع باهتمامي وتأملني نحوه :  
شيء يتمدد .. يتمدد .. وتفوح رائحته الشهية تدوخني فيتسع

مدار الرغبة أن أقرب . الألمس الكف . أشدها إلى أبالله  
بنداي . الصقها بصدري . أتزود من دفئها لصقيع قادم .

صامت !

ضباب صمته يتتشر . ينبت غابات شوك تتجدد أغصانها  
حولى ، أحس وخزها الأليم . أتمنى لو أقلعها شوكه شوكه حتى  
لو أدمت أصابعى كلها . وأقذفها إليه ، قد يتألم .. يصرخ ..  
يبحث عن مأوى لجراحه فلا يجد غير عمري يرتضى عليه . لكنى  
لا أجرؤ لا شيء يشجعنى وهو رغم رفته ودفته يبدو كتمثال من  
الحجر ، أخشى إذا اندفعت إليه أن يكسر صلبه رأسى وتفتت  
حجارته مشاعرى . آه .. لو يحس بالمدى ! لو يقطفنى من  
شوكى ، لو يفهم كم اقتاتت رغبتى من لىالى أرقى وشوقى إليه  
بانتظار أن يتحقق حلمى . ونكون ذات يوم وحدنا ، وتكون كفه  
التي تلامس آلاف الأشياء لى وحدى أداعبها . الحس تعبها .  
وأتركها حديقة مفروشة بالقرنفل . لماذا هو صامت ؟ لو أعرف  
بماذا يفكر ! ما الذى يشغله عنى وأنا المشغولة به ؟ لو أخترق  
المسافة إلى عقله ، إلى قلبه ، إلى عمق مشاعره ، فلربما ألقاه  
مثلى يصارع رغبته ويكبحها لأنه أيضا يحسنى كما أحسه تمثالا  
من الحجر يخشى الاقتراب منه . أقطع صمته . أهمس :



- تقود ببطء . أما أنا فسياقتى طائشة .

صوته الرقيق :

- لا أحب السرعة . ثم ...

وأطلق ابتسامة تلالآت قبل أن يضيف :

- أريد أن أطيل الطريق وأنت معى .

معاملة مهذبة تمنحنى الفرصة . تشرع أبواب الأمل كى  
أدعوه يواصل الطريق . يبحث عن بيت قديم لم تبق منه سوى  
شجرة وحيدة صامدة . نختبئ تحت سكونها . فأحتضن كفه  
بحرية ، أدفق عليها بعض حرارتى ، أثبت فى صمتها الحياة ،  
أبللها بدموع تشبه تلك التى نزلتها طفلة تنام وظل أمنيتها يغمرها  
أن تمتد كف أبيها إلى وجتها تربت عليه بحنان ، وإلى شعرها  
تربطه بشريط الأعياد .

أستدير إليه كلى مشحونة بشجاعة مفاجئة . فى اللحظة ذاتها  
كان يمر كُـم « دشداشته » ويسقط عينيه إلى ساعة يده فانكمشت  
عقارب شجاعتي المتحفزة . وغباء ليس من صفاتي تصورته  
تذكر موعدًا آخر يهيم نفسه ليعتذر لى . فبادرت ، ابتلعت  
شجاعتى ، وفرطت باللمحة .

صامت !

يقطع صمته بين لحظة وأخرى بكلمة . أو تعليق . لا شيء  
منه يرد روى . لو كان يملك بعض إحساسى الكبير به لعرف  
كيف يبادر . ليس من رجل لا يعرف أن أول لحظات الحب تبدأ  
بلمسة كف تعرش بعد ذلك عنبًا فوق الوجنات ، وكرزًا أحمر  
بين الشفاه . لو كان لديه بعض رغبتى لما ترك كفه يتجمد فوق  
المقود بينما دفء كفى بالانتظار .

مجنونة أنا ؟ أم ترانى أبنى أحلامًا فوق الرمال ؟ موجة  
واحدة تدفق بهدوء كفيلة أن تهدم أكبر القصور . على أن أكون  
رحومة بقلبي ، بمشاعرى . بأحلامى .

طريق البيت تقترب . وأنا ! أتمنى لو منه أقترب . أفتت  
جليده أحطم أصنامه . أرتدى على كتفه . أشم عرق الشتاء يبلل  
عشب جسده . أجذب وجهه نحوى . وأفجر بركانى على  
شفتيه . لكننى جبانة لا أجرؤ . والخيبة بداخلى تكبر . تفرش  
ملاءتها السوداء فوق روى . والحلم مثل مرآة يتكسر . لكننى  
رغم ذلك أقبض عليه كى لا يتبعثر . ربما يسطع أمل جديد .  
كلمة جديدة منه تلملم بقاياى . تنصرنى على ضعفى فأرتاح .  
توقفت السيارة . حلمى لا يتوقف . ينطق به لسانى  
والخوف يملأنى أن يرفض دعوتى :

- تشرب معى فنجان قهوة ؟؟

تردد . طاف بوجهى حزن ربما لمحه فأشفق على . ولبى  
الدعوة . تبددت غيومى السوداء . انفتح باب الأمل فى اللحظة  
التي ترجل وأغلق باب سيارته .

دافئ البيت كقلبى . والقهوة تأتى يتصاعد بخارها ، رائحتها  
التي تشبه رائحة حبيب يأتى متعبًا فيتسرب عرقه الصيفى إلى  
خللايى يشير شهيتى لوصل حنون .

الرائحة الآن تفتح نافذة أعبر منها إلى كفه الذى أحلم به .  
لكنه يرتشف القهوة ولا يشعر بأحلامى . تأملت فنجانى . نظر  
مبتسمًا :

- هل تقرأين الفنجان .

اندفع حلمى وفرحى إليه :

- بل أقرأ الكف .

مد كفه . فى لحظة تحولت إلى كمان حزين . يدى  
المرتعشة شوقًا امتدت إلى الأوتار الرقيقة فيها . فاح لحن  
سماوى بمقدوره أن يرقصنى . يثيرنى لأفعل ما أشتهى . لكننى  
تأملت الكف . طويتها وهمست :

- ليس الآن .

غباء آخر أقهر به قلبي . وأنا مبعثرة الشعور ما بين الرغبة  
والامتناع . شعرت بالمكان رغم دفئه غير مناسب . أريد مكانًا  
آخر تفوح منه عطور تليق باللحظة . أريد عطر بحر ، بيت  
شعر ، شجرة « بمبر » ، تنور خمدت ناره ، أو عش عصفور  
مهجور . فللأحلام أمكنتها الخاصة التي تولد فيها كالأعراس .  
لم ألمح فى وجهه أسفًا ولا خيبة ، وسؤاله البارد :  
- لماذا ليس الآن ؟؟

هل يتغابى أم يستفزنى لأنطق ؟ هل أصدق أنه لم يجرب  
القراءة دون كلام أو أن امرأة لم تعشقه ذات يوم فتتحول طفلة  
ترضع حليب أمها الشهى ؟  
حلمى انكسر . أدرك أننى سأكسره عشرات المرات قبل أن  
أجرؤ . ابتسم . شعرت ابتسامته ترتاح لضعفى . أو تشمت به .  
أو ربما تنتصر لخلاصه من مبادرة يخشى عواقبها .  
استأذن بذوق شفاف . فابتلعت علقمى وأنا أودعه . وأشرع  
له الباب . كانت السماء متدثرة بالغيوم ، غاب وجه القمر  
وعشيقاته النجوم لم تبق سوى نجمة واحدة تضيء ، ولا تذوب  
فى السماء الباردة . وكأنها حلم غير قابل للكسر .

١٩٩٥

## الحب فى اللحظات الأخيرة .

جسده الذابل ، اصفرار وجهه ، ركود حركته ، أنفاسه المتلاحقة التى يستلها بمشقة ، كل شىء يوحى أنه يعانى تعب اللحظات الأخيرة . لكنه السؤال المعتاد الذى لابد منه :

- كيف أنت اليوم ؟

تلجلجت الكلمات بين شفثيه ، بضعف أجاب :

- ليس كما تحبين .

دقائق قليلة قاومت فيها عُصَتى و حزنى ، شعرت أننى غير قادرة على البقاء أمام حالته المؤلمة ، استأذنت ، دنوت منه . كانت ذراعه المتورمة تسقط بلا حياة فوق ذراع الكرسي . لامست أطرافها داعبتها ولا أدرى كيف جرؤ لسانى وأطلق الكلمة :

- يدك باردة .

دحرج نظرة حانية إلى عيني . بشاقل شديد حرك لسانه ، أوجعنى صوته المعبأ باليأس :

- الموت يا عزيزتى . يبدأ من الأطراف .

ماتت الكلمات فى حلقى ، لم أعرف كيف وماذا أقول !  
حاولت وكأننى فراشة حائرة فى قلب زجاجة . رتقت انفعالى  
بكلمات متداخلة مشوشة ضَلَّت كل معانيها . وتفاديت النظر إلى  
عينيه ، لكن إحساسى لم يغفل نظرتة المركزة على وجهى وكأنها  
ترجونى أن أبقى لبعض الوقت . سارعت أهرب خشية أن يدفق  
حزنى إلى عيني . لم أشأ أن أقهره بضغفى ودموعى فيشعر  
وكاننى أودعه للمرة الأخيرة .

رافقنى وجهه طوال النهار . حاولت أن أتهرب منه وأنا  
أجوب الساعات الطويلة . لكن الذكريات اصطادتنى وأزهرت  
أمامى تلك اللحظات الشقية الماضية فى خواصر الذاكرة .  
تذكرت شكله القديم . القامة الممتدة بعنفوان ، الصدر  
العريض الذى اشتبهت ذات يوم أن أتدقأ بين عظامه ، الكف الرجولى  
الذى يصك على كفى مرحبًا فيفتح نوافذ رغبتى نحو شفتيه  
المبتسمتين أتمنى لو أفضمها بكل جوعى وأشرب حلوها المخزون .  
السنوات تمضى ، ريحها ما بين الفصول تطرح الوجوه  
بالدرب . مصادفات تحمل الحكايا الصغيرة . الرعشات  
المؤقتة ، الأحلام البريئة التى توارىها دفاتر الذكريات المنسية فى  
الأركان الصامتة . وحده وجهه . لم يذب من ذاكرتى ، ظل

يناوشنى بين وقت وآخر فأخترع الأسباب لألتقيه وأهدى لكفى  
منه تلك اللمسة التى تفجر ضياء يشع فى مساحة قلبى ، وسؤال  
حائر يتقاذز : هل يحس بمشاعرى ؟ هل تسرى رعشة كفى إليه  
تنبئه أن التى تسعى إليه إنما تأتى مدفوعة بذلك الشعور الجميل  
والحلم الأجمل ؟؟

فى كل مرة أزور مكتبه المكتظ بالزائرين والمراجعين ،  
أدخل وأجراس قلبى تفرع فرحاً ، يرحب بى ، يرشنى بكلمات  
الود والإعجاب ، لكنها لا تمنحنى الشعور بخصوصيتى ، كنت  
مجرد امرأة كسائر النساء العابرات ، ينتهى اللقاء ، يذوب فرحى  
كالملح ، أخرج ولا يبقى منى سوى رذاذ عطرى الذى تذيبه  
أنفاس الآخرين .

لم أستطع أن أنساه ، أى امرأة لا تقوى على نسيان الرجل الذى  
لا تحقق الوصل معه . يبقى فى الصميم تبقى حسرة الحرمان هائجة  
ومائجة لا تخلد إلى الراحة حتى وإن أرخت سدائل جفونها ، تظل  
ما بين الأمل وانحناء الأيام وشحوب السنوات تحلم أن تحقق  
وعداً ، تنتظر لحظة تعرى بلادتها ، تكسر حواجزها لتتوالد  
المحاولات ، لعل الجدار السميك ينهار ، لعل البحر يضيق ، يدفأ  
الرمل ، يصير فراشاً يحتويها هازجاً بالندى .

لكن السنوات لا ترأف بالحلم ، تسرقه ثمرة ثمرة ، لا تنتظر  
عسر الولادات المؤجلة ، زحفت إليه ، أضمرت بساتينه ،  
شربت رحيقها ، اقتاتت من ثمار جسده أشهاها . جرؤ  
المرض ، عصف بالعمر الشهى ، تقوست قامته قبل أن أكتوى  
بنارى المتوحشة عليها . هزل الوجه قبل أن أرش بدائع لهي  
نجومًا عليه . تجعدت الكف قبل أن أعابثها فتدس أطرافها الثائرة  
فى تفاح جتى .

سقط فى الوحدة العائمة ، غابت سنوات ائتلاقه الجميل ،  
تكوم مقعدًا على كرسية البارد ، فاقداً نصف الحياة ، وظل حبي  
مشرئبا بقامته والعمر إلى غروب .

يعرف الآن وأنا أحمل له زهورى أننى أجيء لا كما كنت  
تلك الغريبة عنه ، بل المرأة التى أحبت بصمت وانتظرت ولاحق  
الزمن حلمها حتى كبا ، فلم يتبق من شىء غير هذه الزيارات  
الأسبوعية التى توجع القلب . كان لابد أن تعرف ، وأشرق ذلك  
النهار المناسب الذى خلعت فيه بردة صمتى .

كان يجلس وحيدًا ، يقلب الصحيفة اليومية ، دخلت فالتقى  
بها جانبًا ، وقف ، متثاقلاً ليستقبلنى . لم يكن المرض قد تمكن  
منه بعد . أرحت زهورى على الطاولة القريبة . اقتربت منه ، مد



كفه ، تجاهلته . اندفعتُ إلى وجنته ألصقت عليها شفتى ،  
ارتعش وكأنه يلامس امرأة لأول مرة ، ابتعدت ، حدقت ،  
بوجهه ، أستشف تأثير مبادرتى ، رأيت وجهه عارماً بالفرح ،  
تشجعت ، عدت للوجنة الأخرى أكثر حرارة .

قبل أن أبتعد شدتنى ذراعاه ، لم أتردد ، ارتميت بينهما فى  
لحظة أشبه بالغيوبة . زرعت لون شفتى البرتقالى على شفتيه ،  
حملتها توقى العنيف وصفو شعورى و كأننى فقط فى تلك  
اللحظة قد حررتها من أغلال الصمت . هبط إلى كرسيه واهنا  
كأنه آدم يهبط من جنة لا تتسع لسعادته .

جلست . فتحت له دفاتر الحب الموشوشة بالصبر وكان  
البرق شطر الغيمة فانهلث بوحاً خصباً .

لعثمت المفاجأة ، وبعد أن استراح تهادى إلى صوته حزيناً  
لا يخلو من كبرياء :

- جئت متأخرة . لقد عافنى الزمن .

قنوط بعثر محاولتى أن أزف لقلبه أملاً وانتعاشاً . شعر  
وكانه أحبط المحاولة . أهدانى ابتسامة عذبة . أشار  
لمجموعة كتب متراصة . حدد لون أحدها :

- ناولينى إياه .

فتحه ، استل من بين الطيات الصفراء صورة ، قدمها لى ،  
تأملتها :

- امرأة جميلة .

استراح وجهه :

- وجدتها اليوم صدفة فى الكتاب .

- حب قديم ؟؟

- أعطيته أبهج أيام الشباب . ماذا أعطى اليوم ؟

زم عينيه كَمَنْ يحبس حسرة ، أشفقت عليه ، سحبت كفه ،  
تشبمت رائحتها الحميمة ، مسحت وجهى كله عليها .  
همست :

- يكفى أن أراك وقد عرفت مخبوء قلبى الذى صبر .

ماجت سعادة طفيفة على وجهه . غازلها عرق خفيف ،  
تفصّد سريعًا ، ضحك قبل أن يقول :

- يا لغرابة الزمن !

- تحقد عليه ؟

تألم وجهه . عصر كلماته :

- هل يفيد النهر الجاف هطول المطر ؟

أصررت أن أبذر شيئًا :

- على الأقل يبلل الأحجار الصغيرة فتنبت عليها  
الأعشاب .

ذرف عتابه الجليل محدقًا بوجهي :

- لماذا جئت متأخرة ؟

قفزت إليه . تكومت بين ركبتيه مثل قطة تتمسح بسيدها ،  
أرخيت رأسي على ركبتيه ، تسربت أصابعه إلى شعري ، ثم إلى  
وجنتي ، هرسها . تناثرت حزمة ضوء إلى عمقي .

خرجت ذلك النهار غير نادمة أنني صارحته . تصورت أن  
شمسًا جديدة ستبزغ في مشاتل روحه ، وأن حناني سيتمدد  
عريشة خضراء في شرايينه ، تشعنه بقوة يتحدى فيها المرض ،  
يعاند الزمن ، يحلم مثلي .

لكن الزمن كان أقسى . ظل يتأكله فأراه يذوب أمامي في  
كل مرة أكثر من المرات السابقة .

يعرف الآن حتى وهو يصارع ثقل لسانه ويعلن أمامي أن  
الموت يبدأ من الأطراف ، يعرف أنني أجىء امرأة غير كل النساء  
لا يعرف سرّي أحد سواه . أحمل له زهورى التى تؤكد له أن  
الحب سيبقى حتى اللحظات الأخيرة .



## الليلة ترقص شهرزاد

فى لحظة متلاثلة . انفصلت عن الواقع . أغلقت أبواب  
النهار . أخرست ضوضاءه التى تمتص حياتى فى دوامة  
لا تنتهى . تحولت نجمة ترتدى ثوبها الشفاف . وتلبى دعوة  
القمر آملة أن تسقط فى حضنه وترتوى .

جلستُ على الأريكة الوحيدة . احتضنت بحنان شديد  
جسدى الذى غسل ملحه وتعطر بالبنفسج . استلثتُ شهيقًا عميقًا  
شعرته يرتد إلى صدرى حاملاً شيئًا كالمخدر سرى إلى أعضائى  
سريان ثعبان ناعم . استسلمتُ للدغدغة المتوحشة . دخلت  
عالمًا مؤنسًا زاخرًا بالبدائع والجمال .

بدأت عيناى تجولان فى المكان المدهش . عالم كما الحلم  
يحولنى فراشة تطير من بقعة لأخرى غير أبهة أن تحرقها بقع  
الضوء المتناثرة . تحط على غصن . تلثم جدازًا . وتتمرغ فى  
كف عصفور . ثم تعود إلى الأريكة امرأة ملغومة بالسعادة  
والهفة .

موسيقى نادرة تنبعث من الجدران المحيطة . تحرك الأشياء

الصغيرة المتدلية من السقف : حبال قديمة . سراج مطرز  
بالألوان . « زبيل » قديم تطل من عنفه أعواد ريش النعام  
الزاهية . قواقع مشكوكة بخيوط الشبك ، تنتهى بنجم بحر يفرز  
عرقه القديم . كل شيء يتحرك راقصًا . فتدق فى جسد طبول  
عجربة مجنونة . أصير فارسه يسهل بها الجواد السحري يخترق  
الجبال . يشق الغيم . ويكتسح الريح .

غادرت الأريكة . بدأت أغزو المكان بخطى وثيدة . أندس  
فى كل لوحة تصافح عيني . هى ذى الصحراء برمالها الذهبية  
المتموجة تدعونى : « هيا تعفرى بالرمل الساخن » . وهذا البحر  
يصرخ بى : « قدمى جسدك هبة للمالح العاشق » . وهذا  
الشروق يهتف بحنان : « تئامبى . وانطلقى نحو الحياة » . وهنا  
الغروب يهدد تعبى : « هيا غوصى فى قرص الشمس الذى  
تحبين وداعه . ونامى فى قلبه الأحمر » . وهناك أبواب قديمة  
تتوسلنى : « انفضى عنى الغبار . اطرقينى . سوف تستيقظ  
لأجلك سلال النوير وترشك بالعبير » .

تقدمت نحو أحد الأبواب . حركت مزلاجه . دفعته فنشج  
صريًا حزينًا . وأمامى سطع وجه الماضى البعيد . ها هو  
الدهليز القديم . خرايش طفولتى على جدرانہ . رهوس طيور

وأجنحة حمام وأسماء رفيقات وارتهم الذاكرة . الدكة الطينية  
صامدة رغم تآكل حواشيها . تناثرت عليها أوراق شجر شائخة  
وخرطوم « قدو » ممزق . فى الطرف الآخر أشياء مكومة .  
أخشاب . بقايا حصر مهترئة . « برمة » مكسورة تصلح عشا  
لطائر تائه . صراصير ناشفة وخفافس داست عليها خطوتى فلم  
تفرز عصارة ولم تثن .

دلفت إلى الحوش . استيقظ الأمس . أسمع شخير  
نيام . هديل حمام . أشم رائحة موافد . يتلوى « الطرثوث »  
فوق جمرها وينضج « الفندال » . ألمح دلة قهوة تراكم عليها  
الصدأ الأخضر وتوارىخ الأيدى التى حملتها وعبأت  
الفناجين . فى الزاوية « صفرية » محشوة بقراطيس وقش  
تفوح منها روائح بيض لم يفقس . جماجم قطط ميتة تناثرت  
ذيلها قرب « الرحاة » التى اهترأت ذراعها الخشبية .  
وانطرحت بجانبها « ركوك » التمر وقد جف الدبس بين  
أعوادها والتصقت عليه أجنحة ذباب .

أبواب الحجرات مشرعة بلا أقفال . اقتربت . دخلت  
إحداها . الأرض خالية إلا من تراب وفضلات فئران . الجدران  
مقشورة وشاحبة ، مساميرها الصدئة ما تزال عالقة بها . تراءت

لى الصورة القديمة : ألمح « وزار » جدى . فتلحفنى رائحة  
ليل . وأبوام . و « فطام » . أستل الإزار . أنفض غباره . أدثر  
به عنقى . وعيناي تلمحان عباءة جدتى وقد تأكلت جوانبها .  
وقرضت أذيالها الفئران . أسحبها فأشم رائحة سدره . بخور .  
زعفران . ألتضع بها . أركض إلى الحوش ثانية فتعانق عيناي  
النخلة الشائبة . أهز جذعها المتخشب آملة أن يساقط الرطب  
شهيا . أشد سعة متدلية . أتأبطها . تفوح رائحة « عذق » ودع  
صدر أمه . وتربع فى صحن أمامى . أهمس حالمة : « غدا  
يصير رطباً فلا أترك منه غير النواة » .

أنزع نفسى من البيت . والحجرات تشبه بالدمع . تصرخ ،  
تستعطفنى : ارجعى . اسكنينى . رشيئى بماء الغدير . أحس  
الصدى يلاحقنى كنعيق بوم وثرثرة خفاش . أرتجف . أفر  
حاضنة ذكرياتى كى لا تسقط منى . أصفق الباب ينوح وهو .  
يودعنى ينفخ نحوى صلوات ، ودعوات . الشارع الطينى  
يحتوينى . أقفز فوق برك الماء الراكدة ، أقطع المسافات ،  
أرتمى فوق كومة تراب فتجرح جبهتى قطعة حديد منسية .  
أصرخ . أصحو .

مازلت فوق الأريكة . ألهث بعد الرحلة الأسطورية .



ما تزال الموسيقى الناعمة تقيم أعراسها فى المكان وأنا أنتظر .  
كم من الوقت مضى وهو يتركنى بين الدفء والرجاء ؟ لكنها  
المررة الأولى التى لا أستشعر فيها للوحدة طعمًا مرًا . كل شيء  
حولى ينبض بالحياة . يغنى . يرتل . يهمس . يشهق ويرقص .  
يستفزنى لأنتصب وسط المكان . تحت الضوء المنسدل على  
مشهد البحر وأتعرى من ثيابى . أرقص عارية كما ولدتنى أمى  
إلا من « الشماغ » الذى دثر به عنقى قبل أن يخرج ويتركنى  
وحيدة .

صوته يفاجئ أمنيته . تموت الرقصة . يتسم . ينحنى إلى  
الطاولة الصغيرة . يضع كأس « شربت البيذان » . يتناثر شعره  
الناعم أمامى . أتمنى لو أدمس أصابعى بهذا الليل المتشرد وأعابئه  
حتى يسقط الرأس كله على صدرى وينام .

صوته يقتحمنى :

- تعمدت أن أتركك فى المكان لتتأملى . أعرفك تعشقين  
الأجواء القديمة . كأنك تعيشين ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة .  
أغمضت عينى . تخيلتنى شهرزاد الجميلة . أحتل المكان .  
أتمدد فيه أدخل جوف البحر . أسمع بقبقة الموج وهمس  
الهوامير . غناء بحارة طروب . وصوت شهریار بدفء يطلب

الحكاية . سيفه بكفه منتظرًا بزوغ الفجر ليهوى به على عنقى .  
تصرخ بى الحياة :

- ارفضى ذل الرجل . لا تموتى .

أفرع . أفتح عيني . أفرح إذ أراه أمامى وديعًا بلا سيف .  
السيجارة تحترق بين شفثيه تكاد تكويهما . أمد أصابعى أنقذ  
شفثيه . ينبع ألف شوق من عينيه . والغجرية بداخلى تستغيث :  
حرك السكون . أسقط الحجر فى البئر . ازعب الماء . أفرغ  
الدلو المملآن يتفجر نهر تسبح فيه نساء القارات السبع .

شهر يار نار تبتلع الحريق ، وشهر زاد نار يتلوى فيها اللهب .  
فمن يطفى النار ؟

ألوان الفجر . الغابات المطرزة بألوان الجنة . البحر  
الرصاصى . الرمل الذهبى . ألوان العلب المتناثرة بأنواعها .  
مائية . زيتية . جواش . بعضها شرب دموع الماء . وجف .  
أخيرًا . صار يملك ألوانًا حقيقية . بالأمس البعيد كان طفلًا يشد  
على فحمته السوداء . يرسم على جدار بيتهم القديم شجرة .  
فأكتب بفحمتى عليها :

« الشجرة بيتى »

يرسم وردة . فأكتب على رأسها :

« الوردة عطرى »

يرسم دلة وفناجين . فأكتب فى حلق الفنجان :

« هذه قهوتى » .

ذات يوم فاجانى . سكب القهوة على فستانى الوردى

الجديد . بكيت . مسح دموعى متألماً معتذراً .

- أريد أن تكرهى القهوة . إنها مشروب الكبار .

أيقظنى من خيالاتى الماضية فى العمق . قدم فنجان قهوة

ساخن :

- معشوقتك السمراء . كم وددت لو كرهتها .

رائحة البن . هياج الموسيقى . لا شئ يحركه . لا يصرخ

فيه شئ كما يصرخ بى . لا يشحن بالجنون . أريد أن أرقص .

عينائى قالت . حركة فزاعى أوحى . شفتائى الناشفتان اللتان لم

يمسهما الندى منذ سنوات رجفت . قلبى المصاب بالبلادة

نبض . لكنه لا يفهم لغتى الصامتة . هل أزعق ملء صوتى :

« تحرك يا شهريار و ادع شهرزاد للرقص ؟؟ »

بدلال أطفال جميل . يطلب أن أقص له حكايات زمنى

الفائت . بعناد أرفض . ذلك الدوى بداخلى يهدد ويبتلع

الخيبة . نحن وحيدان . عالمنا القديم برائحته وأشياؤه الجميلة

مشور حولنا فوق الجدران . على الأرض . على الطاولات التي  
لا تتشابه . والموسيقى تبعث الحرارة فى كل شيء إلا هو !  
صياد طويل البال . وأنا السمكة بانتظار الشبكة تلفنى خيوطها .  
أو سنارة تنغرز فى لحمى وتخرجنى حية . أريد أن أجرب  
الحياة . أريد الليلة أن أرقص ثم لا يهم لو أموت . يدخل  
الأصدقاء . تطفأ الرغبة . أخرج من حلمى . ينقذنى حضورهم  
من السعير بداخلى .

تبدأ الحوارات باردة ثم تسخن . يسخن عالمى الصاحب  
ثانية ولا يهدأ . الشبكة تتدلى أمامى . السمكة تتأوه بداخلها .  
عذق ملء بالبلح يتفنج فى طبق خشبى يغرينى أن أتحوّل فأرة  
وأقرضه . هو أمامى يقدم أكواب الحليب المزين بالفستق .  
تتناوله الأيدي تريحه فوق الطاولة . أنا بلهفة أعبه ولا أرتوى .  
تعتربنى برودة . من يطفى البرد ؟؟

شهر يارب يغيب للمرة الثالثة . الرابعة . ماذا سيحمل هذه  
المرة ؟ يدخل . كفاه مليتان بأوراق مشوم مقطوف للتو .  
وزعها بين الحضور . خصنى بالمزيد . أين أزرع هذا الفواح ؟  
لم أخجل أن أدس كفى إلى صدرى . أزرعه ناحية القلب .  
أنساه فى الأمان حتى لحظة الانصراف .

أقطع الطريق الليلي . موسيقاه تسكننى . الرغبة أن أراقص  
أى شىء حتى لو كان الهواء تستبدى . أصل البيت . يستقبلنى  
سكون النائمين . أتحرر من الحذاء . من الأساور . الخواتم .  
وحين شددت حمالة الصدر تساقط المشموم رطبًا فوق  
السجادة . انحنيت . جمعته بحنان . سحبت الشماغ من  
حول عنقى . فركته بالمشموم حتى تعطر . ارتديت قميص نومى  
الشفاف دسست الشريط الذى أهدها لى فى ثغر آلة التسجيل .  
انطلقت الموسيقى . صراخ . ريح . زمجرة موج . تأوهات  
عذارى . واشتعلت شهرزاد . أمسكت بالشماغ . فردته أمامى صار  
شهيبار . صارت له ذراعان . عنق . وجه . وابتناسمة . دعوته  
للرقص . حضن كتنى . حضنت كتفه . شددته إلى صبرى .  
شدنى إلى صدره . أرحت خدى على خده . سرى الدفء رقرأقا .  
قرب شفثيه المبللتين بالوله من شحمة أذنى . لعقها . همس :

- آه يا شهرزاد . لو أسمع حكاية !

أبعدت وجهى . حدقت فى عينيه اللامعتين . السنة النار  
تشعل ضغطت على شفثيه بإصبع كالجمرة . همست :  
- أيها الأهل . الليلة تموت كل الحكايات . شهرزاد الليلة  
تريد أن ترقص .



## يحدث كل ليلة

ظل الذى يحدث كل ليلة يثقل على صدرى ، يعكر حياتى ، قلت لنفسى : لا بأس أن يشاركنى أحد بهذا الحمل . ولربما وجدت له حلاً . ترددت كثيرًا لكننى جرؤت أخيرًا حين التقيت بمجموعة من زملاء العمل فى المقهى البحرى نحتسى الشاي ، نشرب « الأرجيلة » .

كنت كعادتى منذ أن بدأ يحدث لى ما يحدث كثير السهوم ، معتمرًا كآبئى أينما ذهبت . كانت فرصتى حين علق أحدهم :  
- أنت تغيرت . لم تعد ذلك الضاحك المتجلى !!

تنحنحت ، سحبت نفسًا من الدخان . وأطلقت آها طويلة قبل أن أقول :

- والله « يا جماعة الخير » عندى مشكلة تنغص على عيشى .

تبارت الأصوات بين اندهاش وفضول ومشاعر خوف : خير إن شاء الله ، و : يا أخى فضفض عن صدرك . و : معقول تكون فى مشكلة ولا نساعدك ؟ ها . تفضل قل .

أسرني اهتمامهم . حكيت لهم القصة . انفلتوا جميعهم  
بالضحك حتى كاد أحدهم يشرق بالشأى ، وارتج آخر بكرسيه .  
أوشك أن يقع لولا أن تداركته يد الجالس على يمينه . بداخلى  
شعرت بالندم . فقد اشتهمت رائحة استهزاء وشك فى قُواى  
العقلية . ها قد صرت أضحوكة لهم . لمحوا انقباضى .  
تراشقوا النظرات لبعضهم كمن يلومون أنفسهم . قلت :  
- كان لى الحق أن أتردد ولا أطلعكم على سرى . لكن !  
ها قد غلطت .

انهالت اعتذاراتهم :

- يا أخى الحكاية مضحكة . لكن هذا لا يعنى أننا لا نأسى  
لأجلك ونشاطرك همك .  
قال آخر :

- على كل حال . لدى حل لمشكلتك . حتى تنام نومة  
عميقة فلا تشعر بأحلامك .

- تفضل . أتحننى بما لديك .

اعتدل . مَجَّ نفسًا . شفط جرعة من الشأى :

- شوف . افتح أنبوبة الغاز واستنشق الرائحة . تدوخ وتنام  
كالمسطول .



عندما لمح استيائي من اقتراحه الشرير أبدى جدية شديدة .  
وأكمل :

- صدقنى . هذا ما فعلته خادمة فليبيّة بأطفال مخدوميهـا .  
شياطين يتعبون أهمهم وقت النوم . وحين سلمتها مسئوليتهم  
لتخرج مع أبيهم للسهر . ضاقت بهم الخادمة . وأخذت تنشقهم  
الرائحة . الأم لاحظت انضباط نومهم فى ساعة معينة . شكّت  
فى الأمر . لبدت ذات ليلة وفاجأت الخادمة فى المطبخ تمارس  
فعلتها الشنيعة على الأطفال .

فجعتنى الحكاية . وحين لمح استغرابى أضاف لمعلوماتى  
- التى رآها ضحلة - حكايات أخرى اقشعر لها بدنى .  
وحزنت على أطفالنا المتوهين بأيدى الخدم . لكنى رفضت  
الفكرة ! ما يدرينى لو أننى استنشقت أكثر من حاجتى وفقدت  
حياتى ؟

استمعت لكثير من الاقتراحات التى تحاذفت . بعضها جربته  
لمعقوليته . بينما أهملت مجرد التفكير بالبعض الآخر . أكد لى  
أحدهم أن بعض أنواع الوسائد غير مريحة وسادة القطن مثلاً  
تتلبّد مع الرطوبة ، تصير تحت الرأس كالأرض الوعرة . وسادة  
الريش تسبب الحساسية . امتدح وسادة الديباج . جربتها . لكن

الحال ظلت كما هي . فقررت أن أستغنى عن الوسائد . ولم أنج مع ذلك مما يحدث .

أشار على أحدهم بحجة مهدئ . بدأت بواحدة . تطور الأمر لاثنتين . وحين تعذت الحاجة لثلاث وأربع . توقفت خشية أن ينتهى بى الأمر إلى الإدمان ، خاصة وأنها لم تمنع الذى يحدث . اقترح آخر : عليك بالقراءة إنها تمتعك وفى نفس الوقت مشيرة للنعاس .

قلت :

- القراءة هوايتى المحببة . أنا أقرض الكتب مثل الفأر . وذكرت لهم ألوان الكتب التى أقرأها . صرخ أحدهم وكأنه وقع على حل للغز العجيب :

- تلك هى مصيبتك . مادمت تقرأ هذه الكتب . فما تحمله من أفكار تشوش حياتك وتفسد راحتك . ابحث عن كتب أكثر متعة . قلت أجرب . كومت العديد من القصص العاطفية الساذجة . كتب المذكرات . قرأت مذكرات الراقصات فأشفقت عليهن وحقدت على بعضهن . قرأت مذكرات الفنانين الكبار . أعجبتنى حياة ليلى مراد وفريد الأطرش وعبد الوهاب .

تراكمت لدى كتب عجيبة وغريبة مثل كتاب « نكت من تحت الدست » و « كيف تصبح مليونيرًا » و « كيف تروض زوجتك » و ... كلها قرأتها . ومع ذلك ظل الذى يحدث . فعدت لكتبى الأساسية ذات الأفكار التى لا تعجب زميلى .

لجأت لاقتراح تبرع به أحد التهمين :

- « طيعنى » املا بطنك بأكلة دسمة . أتبها بثلاثة أكواب من

البن المخيض ، ستنام كالقتيل .

النتيجة كانت بائسة . حين اتصل بى مستفسرًا عن نتائج وصفته . لعنته مؤكدًا أنها قلبت كيان أمعائى ونقلتنى إلى المستشفى . أحسسته من وراء الهاتف يلوى شفته هازنًا . متهمًا إياى بالجنون .

من حيث الجنون ، لست مجنونًا بشهادة أكثر من طبيب متخصص . كلهم أكدوا سلامتى ، أجمعوا أن لا شئ سيتقضى من هذه الحالة إلا الزواج !

آخ ! المرأة ! وما أدراك ما المرأة ! هلعت من الفكرة . أى فائدة يتصور الأطباء أننى سأجنيها من الزواج ؟ وهل حقًا سيكون منقضى من الذى يحدث ؟

أنا شخصيًا لا أحبذ الزواج . أصدقائى ، وبعض أقاربى

جعلوني أكره هذه المؤسسة ؛ فكلما اقتربت من بيوتهم  
واكتشفت مصائبهم حمدت الله أننى - العاقل الوحيد بينهم -  
هل أنا أهبل لأقبل أن تأتى امرأة وتتحكم بمصيرى ! تفرض على  
شكل ملابسى . وطريقة نومى « كى لا أزعجها بشخىرى » .  
وتلاحقنى بتنبهاتها العديدة وتحدد لى مواعيد عودتى ، تتدخل  
فى اختيار أصدقائى . وقد تسد الباب فى وجه من لا يعجبها  
منهم . ربما تفرض على حتى نوع السجائر التى أذخنها .  
وأنا لا أحتمل أن تصرخ فى وجهى كل مرة لتذكرنى بخلع  
حذائى عند عتبة الباب حتى لا ألوث السجادة « رغم أننى أنا  
الذى سأشتري السجاجيد وكل أثاث البيت » .  
لا !

البعد عن النساء غنيمة . ما لى أنا وثرثرتهن . ودموعهن  
التمساحية ؟ حتى حنانهن أشك أنه صادق . إنه مجرد طعم ليقبل  
الرجل بكل الشروط ثم بعد أن يقع فى الفخ تدوس على  
عواطفه . وأحاسيسه . لذا استبعدت الفكرة من أساسها .  
فكرت :

إن كان ما يحدث مجرد حلم ! فلا بد أن يكون له تفسير .  
وبدأ هم جديد . تنقلت بين المكتبات باحثاً عن كتب تفاسير

الأحلام . وحين لم أجد لحلمى أى تفسير - ربما لغرابته -  
أحرقْتُ كل الكتب التى أحرقْتُ بها أعصابى .

قالت لى إحدى الزميلات فى العمل - وقد سرب لها  
أحدهم سرى - إن حالتى هذه سببها « الكبت الجنسى » .  
حققت عليها . ما أوقع النساء !

كيف لم يجرؤ رجل أن يقول هذا وجرؤت هى ! هل تقصد  
أن تلفت نظرى لأتزوجها ؟ لم أرد عليها . فأنا لا أعانى مما  
تتصوره . صحيح أننى أعيش فى مجتمع مكبوت ! لكن هناك  
وسائل للراحة يمارسها العزاب أمثالى .

عابت الزميل الذى أفشى سرى ؛ اعتذر وقال :

- لا تستهزئ برأيها . ربما لديك « عقدة جنسية » ونصحتنى  
أن أعود بذاكرتى إلى سنوات عمرى الأولى ، وأيام الشباب .  
دخلت متاهةً أخرى . أخذت أقضى الساعات راجعاً  
بذاكرتى إلى الطفولة . تذكرت أننا صبيان الحى مارسنا أنواعاً من  
الشقاوات . لكننى لا أذكر أن أحداً جرح براءتى حتى روادنى  
ذات يوم أحد الصبيان الملعين .

يومها حصرنى تحت « عريش بيتهم » ليرغمنى على  
مشاهدته مع عززتهم الصغيرة محاولاً استشارة حواسى لأرضخ

له . لكن العذاب الذى عانته العنزة صرفنى عن كل شىء .  
تقيأت . فررت لأمى . فنتته لها . وبعد أيام عرفت أن أباه كواه  
فى عورته ليؤدبه .

تدرجت بالتذكر لأيام الصبا والشباب الغض . فلم يتصب  
أمامى إلا وجه وضحة الطيب البرىء الذى كنت ألمحه من شق  
النافذة . وأحلم به طوال الليل حتى تزوجت فشعرت أن حلمى  
انكسر . ورفضت البحث عن حلم جديد .

ما عدا تلك الذكرى لم تكن لدى تجارب عملية . كانت  
شهوتى العارمة للقراءة تحمينى من خدش الحلم بالاقتراب منه .  
اختصرت علاقتى ببعض الشباب عشاق القراءة مثلى . بعضهم  
كان يسافر ويأتى بالكتب الجديدة والغريبة . فنقرأ ، نناقش ،  
نبحث عن أى شىء يضيف لعقولنا . تشكلت بعد ذلك  
مجموعتنا التى انتهت لفكر واحد .

هذا الارتداد للزمن الماضى أكد أن لا شىء فى حياتى  
يجعلنى أخجل منه . وأننى لم آتِ فعلاً فاحشاً أو مخالفاً للقانون  
أستحق هذا العقاب الذى يحدث .

ذات ليلة . كنت فى ضيافة صديق . ضمت الجلسة  
مجموعة غير متناسقة من الرجال والنساء . فى تلك الليلة لفتت

نظرى امرأة - رغم سميتها وقصر شعرها - كانت تقرأ طالع  
 إحداهن فى فنجان القهوة . لأمر لا يعدو كونه « تسلية نسائية » .  
 لكن اندهاش التى تسمع وترديدها كلمة « صَخ » جعلنى  
 أندفع للمرأة . أقدم لها فنجانى بعد أن قلبته وجف قلبه .  
 ضحكت . لم تتأخر أن تسخر منى :  
 - مثقف مثلك . يؤمن بالفنجان ؟  
 دافعت عن نفسى :  
 - أبداً . مجرد فضول لأكتشف قدراتك .  
 امتعضت . فرشوتها بابتسامة . تأملت فنجانى . تغيرت  
 سحتها . نظرت إلى نافرة متعوذة :  
 - أنت مسكون .  
 بدهشة لا تتناسب وثقاقتى :  
 - مسكون بماذا ؟؟  
 بحلقت بوجهى فغابت جاذبيها :  
 - بالشياطين .  
 هزئت بسرى . لكن لم يمنعنى أن أسألها لأشعرها بأهميتها :  
 - وكيف أتخلص من شياطينى إن شاء الله ؟  
 قالت بثقة من يملك الحل :

- غيّر سكنك .

عقدت ما بين حاجبي استياء . أكملت :

- أدواتك . أثاثك . وإن استطعت - غيّر بعض أفكارك .

عدت إلى بيتي . تجولت فيه . بحثت عما يوحى بأنه  
المسبب لما يحدث . هل هي الفوضى ؟ هل هو التراب  
المتراكم فوق الخزائن والرفوف ؟ هل هو الأثاث القديم الذي  
اشتريته بسعر معقول من سوق « بين المقبرتين » ؟

الغريب أن كلامها الذي سخرت منه . أقلقني . لعنتها .  
ولعنت الفنجان . ويومًا بعد يوم سيطرت على فكرة التغيير .  
هربت لسكن آخر دون أن أحمل شيئًا من أغراضى . لكننى لم  
أستطع إلا أن أحمل كتي وأفكارى معى .

حين استلقيت على فراشى الجديد فى الليلة الأولى .  
قهقهت سعيدًا على اعتبار أن تلك الكائنات لن تعرف الصعود  
إلى الطابق الخامس - تعمدت اختيار دورٍ علوى متوهماً أنه  
سيحمينى - لكن فرحى خاب . حدث الذى يحدث كل ليلة .  
مما جعلنى أستعيد ما قالته المرأة بأننى مسكون بالشياطين .  
قررت الذهاب إليها - وأنا آسف لأجل نفسى التى وصل  
بها الأمر لهذا الحد .



طرقت بابها فى ظهيرة حارة رغم تنبيه الصديق الذى أعطانى  
عنوانها :

« يا رجل هذه امرأة سخيفة . يتسلى الناس بهبلها » .  
حين فتحت لى الباب ابتسمت بمكر . ربما تصورتنى أرغبها  
لنفسى . مشت تسبقنى بخطوتها . كانت خفيفة الحركة رغم  
سمتها . دققت بتفاصيلها . نفرت حين تخيلتى أمارس الحب  
مع امرأة تشبه « السرير الهزاز » .

غابت لحظات . عادت تحمل القهوة . استفسرت عن  
حالى وهى تصبها وبخارها اللذيذ يتسرب لحلقى . أخبرتها أننى  
سمعت نصيححتها وغيّرت سكنى لكن ما يحدث لى مستمر .  
ضربت على صدرها برفق - كفها صغيرة وأصابها  
قصيرة :

- علاجك عندى . انتظر .  
عادت تحمل بيدها زجاجة مملوءة بسائل أصفر .  
نصحتنى :

- قبل أن تنام . رشه على فراشك . سيطرّد شياطينك .  
- هل تمارسين السحر أيضًا ؟  
تدلّعت :

- احسبها كما تشاء .

وأنا أهُمُّ أن أخرج النصفت بى متوَددة . ارتعبت . تخلصت  
بلباقة . أوحيت لها بوعدٍ كاذبٍ ويدى تشد على الزجاجة :

- إذا نجح علاجك .

فررت تلاحقنى ابتسامتها الآملة .

رغم عدم اقتناعى بهذه الثرعات . إلا أننى فعلت ما أمرتنى به  
فلم تنجح التجربة بقدر ما أثارت الرائحة قرفى وحكاك جلدى .  
عدت إليها . أعلنت فشل دوائها . اغتاظت وكأننى طعتها  
بقدراتها . طردتنى صفقت الباب بوجهى ولسانها يرعد :

- يا ابن الشيطان !

احترت بأمرى . ضاقت على حياتى ، الذى يحدث  
لا يتوقف . فقررت ألا وسيلة للهرب منه إلا بمقاطعة النوم  
مادامت تلك الكائنات تستغل نومى . احتسيت عشرة أكواب من  
الشاي والقهوة . صعدت صوت الراديو . تركت النور مضاء  
فوجئت بضوء النهار يوقظنى . لقد نمت وحدث الذى يحدث  
كل ليلة .

لاحظ زملائى اضطرابى واعتلال صحتى . بعضهم حاول  
استغلال الموقف :

- يا أخى أنت كثير المناكفة . تزعج مرءوسيك .  
تعارضهم . وتنقب عن أخطائهم .

نفشت غضبى :

- هل تريدنى أن أوافقهم على ما يفعلون . ويطلبون ؟؟  
أرعى أصابع كفه فى وجهى :  
- يا رجل هكذا تسير الأمور فى كل مؤسسات الدولة . هل  
تريد أن تصلح العالم ؟؟  
بكبرياء أجبه :

- إن كنت لا أستطيع إصلاح العالم . فعلى الأقل أحافظ  
على صلاح نفسى .  
هزئ :

- لنر إن كنت ستصمد .  
تحديثه :

- سترى . المهم أن أنام مرتاح الضمير .  
شمت بى :

- وهل أنت قادر أن تنام مرتاح الجسد حتى تفكر بضميرك ؟  
ساير الأوضاع ترتاح !  
لم أجد الراحة أبداً . فى النهار مضايقات . محاولات لخنق

عنقى فى ذات الزجاجة التى اختنقت بها أعناق غيرى من الضعفاء . وفى الليل يحدث لى ما يحدث . وإن كانت وسائلى فى مقاومة أعداء النهار تنجح إلى حد ما ، فإن كل وسائلى التى جربتها لمحاربة كائنات الليل باءت بالفشل .

من أين تأتى ؟ لم تختارنى ؟ وإلى متى ستستمر ؟ ما أكاد أدخل دهليز النوم حتى ألمحها . تزحف نحوى . ثم تعجل بخطواتها . وطيранها . « بق . نمل . عناكب . صراصير . شرانق . سحالى . ديدان » . وأشكال أخرى غريبة لا أعرف أنواعها . ولا أضبط ألوانها . تفرس جسدى أكواما فوقها أكوام . تندس فى أضيق الثنايا . فتحات أذنى . ومنخرى . تحت إبطى . داخل شعرى . فى سُرَتى وبين أفخاذى . تدلق سوائلها اللزجة . تصدر أصواتها المتنافرة . تلقى أوامرها بلا رحمة :

« وقّع هذه الأوراق . مزّق هذا الملف . أضف معلومة هنا . ورقمًا تسبقه عشرات الأصفار هنا . احنّ هذا الرأس - اليابس - امسح أفكارك الغريبة . غض نظرك عما ترى وتسمع . أخفض صوتك العنيد . قدّم الولاء والطاعة » .

تعالى الأصوات حتى تتحول صراخًا باهظ القسوة . أحاول

الدفاع عن نفسى رغم أننى مبدور بلا حول ولا قوة تحت  
الأكوام . لكنها بقوة تضاهى ألف حصان تنتهكنى .

يتفجر شبقها المجنون . تضاجعنى من كل الأمكنة .  
تؤلمنى . ترزض أطرافى . تسحقنى . لا تغادرنى إلا حين  
أصل أعلى درجات الإنهاك . وأتحول مجرد خرقه بالية ممزقة .  
كان لابد أن أجد حلاً يتشل ليلى من هذا النهش القاهر .  
ويعيد توازنى الذى بدأ يترنح بسبب قلة النوم وتشوش تفكيرى  
الذى لم يعد يصب فى اتجاهاته المفيدة . أصابنى الهزال  
والارتباك حتى بدأت أخشى على نفسى من عاهة أو جنون  
محتوم .

أخذت إجازة لمدة أسبوع قضيتها أفكر . تحوّل رأسى إلى  
موتور يشغلبنى بدائره فأبحث عن مخرج ملائم قبل أن تطحن  
عظامى . شحذت كل طاقتى لأنجو . قاومت . تصبّرت  
تحملت .

فجأة ! هدا كل شىء قبضت على قناعة - رغم سذاجتها -  
إلا أنها الحيلة المناسبة للخروج من المأزق .

إذا : أنا رجل غير عادى . رجل مشبوه " بنظرهم " .  
وما هذه الكائنات سوى أشباحهم النهارية تتسلط على . حتى

تولعت بى حقيقة . وعلى أن أبادلها الولع - فلا يُفترض  
بالمعشوق أن يرفض مداعبات وشهوات وأوامر عشاقه حتى وإن  
وصلت حد الأذى - على أن لا تمس القناعات المترسخة .  
سأعترف لكم بشيء غريب . منذ أن استسلمت لهذه القناعة التى  
قد ترونها باهتة وغير منطقية - توقف زحف الكائنات الحفيرة .  
وانتهى الذى يحدث كل ليلة .

## زهرة تدخل الحى

دخلت زهرة الحى ذات ليلة . لا أحد يعرف من هى !  
ولا كيف جاءت ! ولماذا جاءت ، ومن الذى استأجر لها هذا  
البيت الذى تطل شبائيكه على البحر . رغم هذا ، فُتِحَ باب آخر  
من ناحية البحر . كانت زهرة تشرعه فى الليل . تجلس عند  
بابه . وتسهر . قال جيرانها إن زهرة تعشق البحر . تناجيه مناجاة  
الخليل للخليل ، تبثه أشواقًا دافئة . تغنى له . يسمعون لها  
صوتًا حنونًا ، أو صفيحًا ناعمًا ذا موجات كأنها لغة عصافير  
ضالة .

زهرة امرأة ناضجة فوق الثلاثين . جميلة لها وجه أبيض  
صاف مستدير . وخدان متوردان يكاد ينفر دمهما . وعينان  
سوداوان واسعتان يحرسهما حاجبان رقيقان أشبه بسيوفين  
حادين . أما شعرها فينسدل شلالاً كستائياً يغطى أطراف  
كتفيها البضين . وحين تبسم زهرة تنفجر شفتاها عن صفيين من  
اللؤلؤ الصافى . ويبرز فى أقصى فمها طرف سنة ذهبية سرعان  
ما يختفى حين تغلق الشفتين المكتنزتين .

زهرة جميلة . والحي هادئ وديع . بيوته الطينية لا تحمل  
صدى لأحقاد . الناسُ في الحي متآلفون . حتى الحمام على  
الأسطح تعرف أوكارها . ولا تتوه . ولا تتغرب . وحين دخلت  
زهرة الحي هلعت قلوب النسوة الآمنات . لعب الشك في  
قلوبهن . ابتدأن السؤالات : هل هي متزوجة ؟؟

إذن ! لماذا تسكن وحدها ؟؟

هل هي أرملة أو مطلقة ؟؟

الخوف يزداد : أم تراها عذراء ستحافظ على نفسها  
وشبابها ؟

حين عبثت الشكوك والمخاوف في القلوب . لم تعرف  
النسوة طريقاً لراحتهن إلا بيت « أم محمد » وقلب أم محمد  
الذى اعتاد أن يحضن هموم الحي . ويواسى كل مفجوع .  
ويبارك كل فرح . يزغرد لسانه وترقص شفاته ، قلب أم محمد  
الذى لا يفرق ، ولا يعرف الكره أو الحسد .

قالوا لها :

- يا أم محمد . زهرة فاتنة بابها مشرع للريح . زهرة تحب  
هواء البحر وأزواجنا فيه يعملون ، ونحن نخشى عليهم من  
الفتنة .



بان الضيق والأسف على وجه العجوز الطيب وعاتبت :  
 - تخفن على أزواجكن . ولا تخفن على بحركن .  
 - البحر للجميع يا أم محمد . زهرة تعشق البحر .  
 لمعت دمعة فى عين أم محمد . طاف حزن كأنه آت من البعيد :  
 - هل تحب زهرة البحر أكثر منا ؟؟ هل تعشق رمله ؟  
 وريحه ؟؟ وموجه أكثر مما عشقناها ؟؟ هذا البحر بحرنا . هو ذا  
 أمامكم . اسألوه : من عشقه ؟ كم قلبًا نهش . وكم قلبًا أسعد !  
 كم أخذ منا ؟؟ وكم أعطانا ؟؟ عظامُ رجالنا صارت له  
 مجاديف ، وأعناقهم صواري . بحرنا لا أحد يعشقه سوانا .  
 أنتن لا تتأملن . تململت النسوة . قالت إحداهن :  
 - يا أم محمد جئنا نأخذ منك المشورة . ماذا نفعل مع  
 زهرة ؟ كيف نحمل رجالنا ؟ وأنت هداك الله تتكلمين عن  
 البحر . وكأنك تخشين أن تسرقه زهرة وتترك الرجال .  
 هزت أم محمد رأسها :  
 - هذا ما يتأجج فى قلبى لكنكن لا تعلمن . اذهبن إذن إلى  
 زهرة . اجسسن نبضها . افهمن منها ماذا تريد . ولماذا جاءت !  
 وتفكرن فى كل ما تقول .

\*\*\*

رحبت زهرة بالنسوة ترحيباً فاجأهن . قبلت كل واحدة  
منهن وكأنها تعرفها من زمن بعيد . سألت كل واحدة عن  
أحوالها . تلك عن زوجها المريض وتلك عن ابنتها التي تعثر  
حظها . وسألت أخرى عن كتنها التي لا تحبل . وقررت أن  
تصف لها علاجاً فرفرف الفرح على وجه المرأة . سألت عن  
« أبو يوسف » النجار الذي بترت يده وقبع في البيت وعن  
« شيخوه »<sup>(١)</sup> التي تبيع نفسها للرجال . وأكدت أن الشرف  
والفضيلة فوق كل شيء . آخر ما سألت عنه زهرة ويحرص  
شديد ، سألت عن « أم محمد » وهل ما زلن يلتفخن حولها  
وتصير سرايين قلبها أذرعاً تضم الجميع ؟ هل مازلن يحبينها  
ويؤمنن دارها عند الشدائد والأفراح ؟ فوجئت النسوة بأن زهرة  
تعرف الشيء الكثير عن الحى ، وأهله .

بادرتها إحداهن :

- إذن هذا سبب اختيارك لحينا . سمعت عن ناسه الطيبين .

رفعت زهرة حاجباً . ويكل الثقة قالت :

- فى كل مكان يوجد أناس طيبون . ليس هذا مقصدى .

---

(١) شيخوه : اسم علم لامرأة . وأصله « شيخه » .

سمعت أن الحياة هنا أرحب . جئت أبحث عن وضع أفضل .  
قالت أخرى :

- أو ربما لأجل البحر .

أومأت زهرة بكفها :

- بالضبط . هواء بحر كم يناسبني .

- لكن الرطوبة عندنا شديدة . تتعب الصدر . وأنت تتركين

الباب مشرعا للريح طوال الليل . ألا تخشين من اللصوص أو

الكلاب السائبة ؟؟

ضحكت زهرة باستخفاف :

- لصوص !! كلاب ! أنا أخاف . إذا جاء اللص أعرف

كيف أتعامل معه . أما الكلاب ! فلها علاج آخر .

- يا زهرة . جئت وحيدة وما تزالين .

فهمت زهرة صيغة السؤال . ابتسمت :

- تركت زوجي . . وأولادى هناك ربما يأتون .

ارتطم الخوف بقلوب النسوة . إذن . لها زوج بعيد وهى

جميلة .

وأزواجهن لهم عيون فتاة وأيضا لهم طباع النمل الذى

يمشى إلى « رائحة الدسم » .

وزهرة ! يا لها من امرأة !

أحست بما فى العيون من رعدات ، فتودّدت :

- أنا لا أحب الخروج . ولا الأسواق . ولا زحام الناس .

أفضل أن أبقى هنا . ولكن !!

صمتت . لاح حزن على وجهها . تعاطفت بعض النسوة

معهما :

- لو بقيت هكذا ستشعرين بالوحدة . أنت غريبة . وصرت

جارية نحن مستعدات لكل ما تطلبين . وإلا من أين ستعيشين ؟؟

تناغم الحزن فى صوت زهرة :

- هذا ما أفكر فيه . زوجى يتأخر حتى يرسل المال . لهذا

أنا بحاجة للعمل .

تبادلت النساء النظرات واثارت السؤالات :

- ماذا بإمكانك أن تعملى ؟

- وأى عمل ستقوم به امرأة جميلة مثلك ؟؟

كان فى السؤالات كثير من الفضول . والقلق . والتشوق

لمعرفة الجواب .

قالت زهرة :

- أنا أتقن أعمالاً كثيرة . التطريز . الخياطة . عمل الحلوى

وبعض الفطائر التى لا أظن أن حيكـم يعرفها . وأيضًا أتقن كل ما يـمكن كنساء من أعمال الزينة . و « الحفافة »<sup>(١)</sup> ثم أنا امرأة أتقن لغة جديدة . قد أستطيع تعليمها لمن ترغب .

ترغبين إذن فى العمل بين البيوت ؟

- هذا ما أريد . أحتاج إلى المال كى أعيش . المال الحلال . وشددت على كلمتها الأخيرة لتبذر الأمان فى قلوب النساء . وتنهـدن جميعًا ماسحات على صدورهن :

- « المرأة شريفة .. تريد العمل الحلال » .

\*\*\*

عدّلت أم محمد من وضع « ملفعها »<sup>(٢)</sup> الأسود الذى تفوح منه رائحة دهن العود . ومسحت على وجهها . قالت :

- انتبهن يا نساء يا طيبات الحى .. أيتها العيون التى لا ترى إلا الخير . الفتنة تدخل بيوتكن .

\*\*\*

زهرة دخلت كل البيوت . زهرة الجميلة . أصبحت حديث الحى . سموها « هبة الريح » لسرعة حركتها . وإتقانها كل عمل

---

(١) الحفافة : إزالة شعر الوجه والحاجبين .

(٢) ملفعها : غطاء الرأس لكبار السن من النساء ولونه أسود .

تنجزه . ارتدت نساء الحى أجمل الثياب . وتزينت « المطارح  
والمساند » بالتطاريز ، وبالترتر الملون . تجملت وجوه النساء  
بأصباغ . وتفننت زهرة فى تجديد شعورهن الطويلة . صارت كل  
البيوت تحب زهرة تطلبها وتكرمها . فكل النساء راضيات . زهرة  
ذكية . تحرص على ألا تحتك بأى رجل . لا من الأزواج . ولا من  
الأبناء . إذا دخل واحد منهم فجأة دون أن يتنحى أو يطلب « درياً »  
تثور زهرة ، يحتقن وجهها وتسب بكلمات غير مفهومة . تنصصر  
النساء لها يؤنبن الذى فعل . لا يُردن أن تغضب زهرة . وتعاف بيتاً  
من البيوت . لكن حلم زهرة ظل أن ترى أم محمد .

سألت إحدى النساء :

- ألا تريد أم محمد أن أخط لها ثوباً ؟؟

قالت المرأة :

- أم محمد حريصة على ثيابها القديمة لا تستبدلها .

ولا تفرط فيها .

- ألا أصنع لها مساند ؟؟ فطائر ؟؟

مساندها « السدو <sup>(١)</sup> » أغلى عليها من كل شىء وهى

---

(١) السدو : أعمال اليد البدوية .

لا تحب الفطائر . تصنع بنفسها « قرص العقيلي » .  
ذاب حلم زهرة صارت كل البيوت بيتها . إلا بيت أم محمد .  
ظل موصداً .

ولم تثر زهرة أية مشكلة فى أى بيت . صارت محبوبة .  
كوّنت الصداقات . أصبحت الغريبة واحدة من أهل الحى .  
ونسى الناس الطيبون تساؤلاتهم ، نسى الناس بيت أم محمد .  
تحدثوا عن زهرة . صارت هذه الزهرة كالبيت لهم . داخل  
أوراقها يستريحون . ومن شذاها يتنفسون ومن بريقتها يستمدون  
كل جديد . وحدها أم محمد تمسح كفاً بكف . ترى ..  
وتصمت .. وتردد : « لا حول ولا قوة إلا بالله . »



حين تُطفأ الأنوار . ويغلق الليل عيونه . تشرع زهرة  
الباب . فيأتى هواء البحر منعشاً . تحمل رائحته عطرًا خاصًا  
تُلَوِّح زهرة يديها الجميلتين . وحدها ساهرة عند الباب ..  
الناس نيام ..

وعيون أم محمد فى الفراش لا تنام .



ذلك النهار . لقي الناس فى بيت زهرة صبية جميلة .  
سألوها فقالت :

- هى أختى .

رخبوا بها . غريبة جديدة . هى أخت زهرة المحبوبة .  
والحى الطيب يحب الضيوف ويكرمهم .  
بعد أسابيع جاءت غريبة أخرى . استأجرت لها زهرة بيتًا  
على البحر .

- من هذه يا زهرة ؟؟

- هى ابنة عمى . مات عائلها . جاءت تبحث عن عمل .  
وحين دخل البيت شاب جميل . يقف الصقر على زنديه  
قالت زهرة :

- لا تنزعجوا . إنه زوج أختى . يتقن أعمالاً كثيرة ولكن !  
واهتزت قلوب النساء :

ماذا يا زهرة ؟؟

- يريد بيتًا قريبًا منى . ولا أجد .

لم يدم حزن زهرة أكثر من أسبوع . كان صاحب أحد  
البيوت يترك بيته ويؤجره .

كثر أقارب زهرة . يأتون . لا أحد يتساءل كيف يأتون .



وأى ربح تحملهم . الحى غارق فى طيبته . وفى الترحاب .  
اليدُ الآتيةُ « تسد العين » تعمل . تنتج . وتبدع . لا تكل  
ولا تتذمر . لا تكره أن تؤمر فتطيع . الكل يشكر زهرة التى  
تكرمت على الحى . فيكرمونها . . أى بيت تختاره زهرة  
يفرغونه . للأنساب . ثم دفعت زهرة مبلغًا كبيرًا واشترت  
البيت . وحذا حذوها كثير من الأقرباء . امتدت بيوتهم على  
طول الساحل . ولكل بيت باب يشرع . لأن هواء البحر الذى  
يناسب زهرة يناسب كل الأقرباء والقريبات . الذين صاروا من  
أهل الحى . من صلب الحى . وأحبهم كل الحى .  
وحدها أم محمد . تضرب كفا بكف . ويرعم الخوف فى  
صدرها تنتهد :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . لقد باعوا البيوت » .  
استيقظ الحى ذات يوم على صدى النواح . كانت النساء  
الغريبات متشحات بالسواد . سيولاً . . تصب فى بيت زهرة .  
تساءل الحى ما الخبر ؟؟  
جاء الجواب :

- مات لزهرة عزيز .  
وفى بيت زهرة ولولت النسوة وضربن على صدورهن

- وخارج بيتها سكن الرجال . وبكوا .
- عشرة أيام متتالية والحزن الأسود يعرّش على الحى . حزن  
له لون خاص . وعطر خاص .
- تعطل الحى . وقبعت نساؤه فى البيوت فكّرْنَ أن يذهبن  
ليبت أم محمد .
- استقبلتهن وفى الخاطر عتاب :
- طالت غيبتك .
  - شغلتنا الحياة يا أم محمد .
  - بل شغلتنك زهرة .
  - نحن نحبك يا أم محمد . ولا نستغنى عنك . ولا عن  
مشورتك .
  - ما الذى يقلقكن ؟
  - الحى معطل . الرجال الغرباء على الساحل يكون ، والنساء  
فى بيت زهرة يُولولن . لا نعرف معنى لهذا الحزن يا أم محمد .
  - لتعرفن أن لكل حزنه ؟ أحزاننا غير أحزانهم . هذا العزيز  
الذى مات سيحزنون عليه كل مرة عشرة أيام . ونحن ندفن موتانا .  
نؤمنهم الله . ونترحم عليهم ونكره الحزن . والسواد .
  - كل البيوت سوداء يا أم محمد .

- كانت بيوتكم لكنكم بعتموها صارت الآن لهم لا يحق لكم الاعتراض على ألوانها .  
وتنهدت أم محمد .

سمعت النساء تنهيدتها تشق صدرها . وتفر إليهن .  
همسات تخرج من أفواه النساء . فيها ندم . . وفيها خوف وفيها تردد فى السؤال :

- ماذا نفعل يا أم محمد ؟؟

ومن قلبها نبعت أذرع حنان . شبكت النساء إلى صدرها .  
قالت ولغتها أغنية تصدح :

- أنتم أبناء حى . أهلى . وناسى . أعرفكم فكونوا  
حذرين . أغلقوا البيوت دون كل غريب . واحضنوا البحر الذى  
من مائه تشربون .

بكت النساء

بكت أم محمد .

اختلط ملح الدموع . صار حبة لؤلؤ تُذكر بوجه ذلك البحار  
القديم الذى صنع السفينة .

\*\*\*

منذ دخلت زهرة الحى . وعيون أم محمد ساهرة قلقة لكنها

الليلة غير كل الليالى . لقد جاءتها نساء الحى . وقد بدأت  
عصافير الخوف تبنى أعشاشها فى قلوبهن ، وقلوب رجالهن .  
جنن يفتحن القلب ، والجرح . فتسيل الأحزان وتفتق القلب أكثر  
فى عيني أم محمد .

هم ناسى .. وأهل حى . هم أولادى . يأسفون بعد  
الخطأ يطلبون مشورتى .. وآه .....  
صفقت كفًا بكف :

ما باليد حيلة يا عيالى .

حملها الأرق إلى البحر . هجمت على رمله . خلعت  
ملفعتها وانسدلت صفائرها الشائبة حبلاً حنوناً يود لو يضم  
الشاطئ كله إليه .

امتد بصرها الضعيف إلى البعيد . تذكرت زمنها الراحل .  
والدها الذى كان يأتى بعد سفر طويل يحمل رائحة البحر ضاحكاً  
لنصر .. أو عابساً لفشل . وزوجها الذى تبع أباه وركب  
البحر . عشقاً يتنقل بالدم . تحس هواه يسرى مع النسمة  
داخلها . تتشقق روائح « الغاصة »<sup>(١)</sup> وتسمع صدى زغاريد

---

(١) الغاصة : الغواصين .

النسوة وفرحة العودة . المراكب البيضاء تلوح أشرعتها  
وترقص . من هنا كانت تجيء لا من هناك . والبحر واسع  
يتلألأ تحت شعاع القمر وعينا أم محمد تعانقانه . وتنزرعان فيه  
كأنها تصل إلى العمق . لونه تحت الضوء الحانى صافٍ ..  
وهى تتابع موجه تتابعه .. تتابعه .. و .. ماذا هناك ؟  
عينها تصطدمان بأشياء تتحرك .

استقامت أم محمد . لملمت جدائلها الشائبة وغرست  
النظرة الضعيفة صارت نظرة صقر . مراكب تدنو . ولا تصل .  
هى تراها تنزف خيالات متحركة . تندلق فى الماء . يتطاير  
الرذاذ . أسماك تلك أم حوريات ! أم تراها شياطين ؟ خفق  
قلبها . وانهار جسدها الطيب إلى الرمل ثانية . توسدت ذراعها .  
قالت :

- لن أتحرك سأرى ما الذى يجرى فى البحر . أى ربح تأتى  
وأى شيء تنزفه ؟ الخيالات تتحرك هارعة إلى الشاطئ . ثم  
خطوطاً خطوطاً .. إلى الأبواب المشرعة .  
قناديل حمراء تتدلى تعابشها الريح الخفيفة وحين تدلف  
الخيالات تطفأ القناديل . وتغلق الأبواب .

\*\*\*

فى الصبح .. وجد الناس باب بيت أم محمد مشرعًا .  
انهمروا إليه .. هم يعرفون أن أم محمد لا تشرع بابها إلا إذا كان  
لديها أمر تود الإفصاح عنه .

أعلنت أم محمد عن كل ما رأته . وانبلجت العيون  
خائفة غير مصدقة . لكن الناس ما اعتادوا منها الكذب .  
ولا الخداع . وهى أمهم الكبيرة . وهى القلب الأليف الذى  
إليه يهجعون .

كل الأذان أشرعت للخبر الكبير . حتى آذان زهرة .  
والأقرباء .. ثارت .. ثاروا .. صرخت فى الناس :

- أم محمد خرفت .. مجنونة .. تحلم ..

وصرخت مرة أخرى :

- إنها تبلى على وعلى ناسى .

صد عنها الناس ، حملت جسدها الرائع وثورتها وذهبت  
إلى بيت أم محمد تبعها الأقرباء الكثيرون ملأوا الشوارع  
بالهياج .. وبالصباح .

وقعت عينا زهرة على بيت أم محمد .

هى المرة الأولى !

خرجت أم محمد هادئة . واثقة . مبتسمة . شعاع منير ينبع

من كل الوجه الذى اعتاد الطيبة . وعاش فى سلام . رفعت  
ذراعها لتوقف السيل . فتدلى كُثم ثوبها المشغول « بالزرى <sup>(١)</sup> »  
التمعت عليه أشعة الشمس . أثار وهجًا . نقاطًا ذهبية شعت فى  
المكان . وعلى الوجوه الحاقدة كسرت الأشعة العيون . لكنها  
لم تكسر اللسان . صرخت زهرة فى وجه العجوز بكلمات  
فاسقة . فوجئ أهل الحى . كأن الصرخة لطمت كل الوجوه ،  
تجمعوا حول أم محمد . حول جدران البيت الطينى التصقوا  
يحمونه . وبعضهم وقف سدًا .

شتمت زهرة . غيرت أم محمد بعجزها . غيرت أهل الحى  
الذين استكانوا وتعالوا .. غيرتهم بسواعد الأقرباء التى  
تعمل .. غيرتهم بكل جديد جاء به إليهم . غيرتهم بأنها  
بأموالها غيرت .. وبدلت فى الحى . وفى البيوت .. لم تأت  
أم محمد بحركة .

لم تبك .

لم تلطم خديها .

لم ترد على السباب .. ولا التجريح . كل ما يحدث

---

(١) الزرى : خيوط القصب المذهبة التى تزين ملابس النساء .

أمامها .. وما يقال . كانت تعلم أنه سيحدث . لكنها لم تستطع  
أن تقنع الناس به .

النساء باهتة وجوههن ، والرجال كاظمون الغيظ ولكن !  
حين صرخت زهرة مهددة :

- سأطردكم من هذا الحى .

اشتعلت الثورة فى النفوس . صرخوا بصوت واحد :

- سنطردك يا زهرة .

هزت ضحكاتها المكان .

تطلع الناس إلى وجه أم محمد الباكي بصمت .. تابعوا  
نظرتها الحزينة .

كانت تعد البيوت الممتدة على الساحل .. وتابعت كل  
العيون ... كل البيوت .. كلها .. ليست لهم ...

وهزّت أم محمد رأسها .



## الفهرس

٥	عن الكويت القديمة والحب والواقع الجديد .....
١٩	الطاسة .....
٣١	ويبقى الصوت حيًا .....
٥٧	الموت فى لحظة البدء .....
٧٥	فى الليل تأتى العيون .....
٨٧	آخر الليل .....
٩٩	لعبة فى الليل .....
١١١	الإشاعة .....
١٢٣	موت اللبلاية .....
١٣١	حلم غير قابل للكسر .....
١٣٩	الحب فى اللحظات الأخيرة .....
١٤٧	الليلة ترقص شهرزاد .....
١٥٧	يحدث كل ليلة .....
١٧٣	زهرة تدخل الحى .....

## صدر من هذه السلسلة

- 1- عيون الغرباء ..... فتحى غانم
- 2- السرداب رقم ٢ ..... يوسف الصائغ
- 3- حكايات للأمير ..... يحيى الطاهر عبد الله
- 4- مجنون الورد ..... محمد شكرى
- 5- نجمة ..... كاتب ياسين
- 6- نهر المجرة ..... عبد الوهاب البياتى
- 7- السد ..... محمود المسعدى
- 8- بناية ماتيلد ..... حسن داوود
- 9- سرير لعزلة السنبلة ..... محمد الأشعرى
- 10- حجر الضحك ..... هدى بركات
- 11- ساهبك غزالة ..... مالك حداد
- 12- الخماسين ..... غالب هلسا
- 13- حزن فى ضوء القمر ..... محمد الماغوط
- 14- مختارات ..... وديع سعادة
- 15- سباق المسافات الطويلة ..... عبد الرحمن منيف
- 16- دعوا الشقاء سالمًا ( مختارات ) ..... عباس بيضون
- 17- أف ! ( مختارات ) ..... زكريا تامر
- 18- مجنون الحكم ..... بنسالم حميش

- 19- مختارات من القصة المغربية ..... اختيار وتقديم أحمد بوزفور
- 20- يغير البحر ألوانه ..... نازك الملائكة
- 21- مختارات من القصة العراقية ..... ياسين النصير
- 22- ملحمة السراب ..... سعد الله ونوس
- 23- عليك تتكىء الحياة ..... ممدوح عدوان
- 24- حكاية زهرة ..... حنان الشيخ
- 25- ليس فى رصيف الأزهار من يجيب ..... مالك حداد
- 26- أهل الهوى ..... هدى بركات
- 27- النحنحات ورائحة الخطو الثقيل ..... إبراهيم صموئيل
- 28- معاللك ضائعة ..... على جعفر العلاق
- 29- قمر شيراز ..... عبد الوهاب البياتى
- 30- عزيزى السيد كاواباتا ..... رشيد الضعيف
- 31- سهل الغرباء ..... صلاح الدين بوجاه
- 32- صيف لن يتكرر ..... محمد براءة
- 33- كتاب الأيام والأنام ..... جمال أبو حمدان
- 34- طيور الحذر ..... إبراهيم نصر الله
- 35- وليمة لأعشاب البحر ..... حيدر حيدر
- 36- ضو البيت - مريود - دومة ود حامد ..... طيب صالح
- 37- صيف أفريقى ..... محمد ديب
- 38- مخطوط فى العشق ..... محمد القيسى
- 39- إنه جسدى ..... نبيلة الزبير
- 40- أنشودة المطر ..... يلدر شاكر السياب

- 41- الست ماري روز ..... إيتل عدنان
- 42- الفراشة الزرقاء ..... ربيع جابر
- 43- الحى اللاتينى ..... د. سهيل إدريس
- 44- الظاهرة القرآنية ..... لمالك بن نبى  
ترجمة د. عبد الصبور شاهين
- 45- قرطاج ..... عز الدين المدنى
- 46- قرارة الموجة ..... نازك الملائكة
- 47- قصائد متمرّدة ..... شعر : أحمد مشازى العدوانى  
اختيار وتقديم : د. محمد حسن عبد الله
- 48- الوردة تموت ..... شعر : محمد عزيز الحبابى  
ترجمة : أحمد عثمان
- 49- المصاييح الزرق ..... حنا مينه
- 50- السفينة ..... جبرا إبراهيم جبرا
- 51- أغانى الحياة ..... لأبى القاسم الشابى
- 52- اللهب المقدس ..... لمفدى زكريا
- 53- رأيت رام الله ..... الشاعر : مريد البرغوثى
- 54- حُنُو الضمة .. سَمُو الكسرة ..... محمد الفقيه صالح
- 55- حدث أبو هريرة .. قال ..... محمود المسعدى
- 56- النبوة : مسرحية شعرية .. د. خالد محيى الدين البرادعى
- 57- القصة السعودية المعاصرة .....  
اختيار وتقديم : د. طه وادى
- 58- زهرة الصندل ..... وليد إخلاصى
- 59- العلامة ..... بنسالم جميش

- 60- إشرافه . . . . . التجاني يوسف بشير
- 61- النهر المسافر . . . . . اليللى عبد الحميد
- 62- نشيد الحياة . . . . . يحيى يخلف
- 63- ثلاث مسرحيات قصيرة . . . . .
- د. سلطان بن محمد القاسمى
- 64- قصائد الوجد والدم . . . . . فدوى طوقان
- اختيار الدكتور / محمد زكريا عناني
- 65- انكسارات القلب الأخضر . . . . . عبد العزيز مشرى
- اختيار وتقديم / سمير الفيل
- 66- هكذا يغنى طائر الأرز . . . . . هدى ميقانى
- اختيار وتقديم / إسماعيل عقاب
- 67- مصرع ألماس . . . . . ياسين رفاعية
- 68- الغزالات ومسرحيات أخرى . . . . . د. أحمد إبراهيم الفقيه
- 69- سر الماء . . . . . عبد الرحمن مجيد الربيعى
- 70- حلم غير قابل للكسر . . . . . مختارات من قصص ليلى العثمان
- اختيار وتقديم : حسين عيد

## من أعدادنا القادمة

- \* مزامير سميح القاسم ..... مختارات شعرية  
اختيار وتقديم : جابر بسيوني
- \* أباريق البلّور - يوميات صحراوية ..... محمد القيسى
- \* نشيد البحر ..... عبد الله خليفة
- \* ديوان محمد سعيد العباسي ..... محمد سعيد العباسي
- \* الجداول والخمائل ..... إيليا أبو ماضي



## آفاق عربية

يلاحظ على هذه القصص المختارة تنوع الموضوعات ، التي تكون المرأة فيها محوراً اجتماعياً ونفسياً ، راصدةً بذلك وظيفة المرأة في مثل هذه البيئات التي يكون التقليد فيها حاكماً وآسراً ، وللعادة الاجتماعية شكل الطقس المقدس ، فضلاً عن نممات في السلوك ، وأساليب الحياة . وتطلعات الأثر إلى حياة تصبح فيها كيئناً فاعلاً ومؤثراً

Bibliotheca Alexandrina



0678690